كامل كيلاني

أشهر القصص

جَلِفَر

الرحلة الأولى

فِي بِلَادِ الأَقْزامِ

الطبعة الثالثة عشرة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

تمهيد

وَلَدِى مصطفى [1] :

كان من الطبيعىِّ — بعد أن أَتممْتَ قِراءةَ « مكتبةِ الأطفالِ » متدرِّجاً من السَّهل إلى الصَّعبِ — أَنْ تسهُلَ عليك القراءةُ ويَزِيدَ شَغَفُكَ بالمُطالعةِ . وقد أصبحتَ — بعد هذه المَرانةِ الطويلةِ — قادراً عَلَى فهمِ الأُسلوبِ الأدبىِّ ، بأدنَى تأمُّلٍ وأيسرِ انتباهٍ ، وأصبحتَ الآنَ تقرأُ الكتابَ فى ساعاتٍ — بعد أنْ كنتَ تقرؤُهُ فى أيَّامٍ — فكان ذٰلك اكبرَ باعثٍ لى على إظهارِ هٰذه الحلْقةِ القَصَصِيَّةِ الجديدةِ ، لتكونَ رفيقَكَ وسميرَكَ فى آخر مرحلةٍ من مراحلِ طفولتكَ ، وأوَّلِ مرحلة من مراحلِ صِباكَ .

فإذا انتهيتَ من قراءة هٰذه القِصَصِ ، بدأتُ فى إعداد « مكتبة الشَّباب » لكَ . وأنا أدعو الله أن يوفِّقَنى إلى إنجازها ، كما وفَّقَنى إلى إنجاز « مكتبة الأطفال » .

كامل كيلانى

(١) نثبت فى هذه الطبعة تمهيد الكتاب ومقدمته كما نشرا فى الطبعات السابقة .

مقدمة

أيُّها الصبيُّ العزيزُ :

ستقرأُ هٰذه القِصَّةَ المُمتِعَةَ ، وتَدْهَشُ أشَدَّ دَهْشَةٍ حِينَ ترى أُولٰئكَ الأقزامَ الذين تضاءلتْ أجسامُهمْ ، حتى أَصبح « جَلِفَرُ » بينهمْ عِمْلاقًا هائلاً ، ثم ترَى أُولٰئك العمالقةَ الذين عَظُمَتْ أجسامُهمْ حتى أصبح « جَلِفَرُ » بينهمْ قزَمًا ضئيلًا ، وسترى فى ذٰلك لونًا مُعْجِبًا من ألوانِ الخيال .

فإذا كَبِرتَ تجلَّى لك أنَّ فى هٰذا الخيالِ — الذى أعجبك — لوْنًا من الحقيقةِ ، وأنَّ هٰذا الوصفَ الخياليَّ الرائعَ منطبقٌ على حقائقِ مَنْ تعاشرُهم وتراهم فى هٰذه الحياة .

سترى أيها الصبيُّ العزيزُ من الزعماء والأبطالِ ، مَنْ سَمَوْا بجلائلِ أعمالِهمْ على أَقْرانِهمْ ، حتى أَصبحوا — بين جَمْهَرَةِ مُعاصريهم — عمالقةً بين أَقزامٍ .

وما أَجدرَكَ أَن تُعِدَّ نفسك — منذ طفولتك — إعدادًا صالحًا ، وأَن تَحْرِصَ على التزوُّد من الثَّقافة والأدب ، لتكونَ — فى تفكيرِكَ — عظيمًا

من العظماء ، فيَرى فيك مُعَاصِروك عِمْلاقًا عظِيمَ الخطرِ .

فإن قصَّرتَ فى طُفولتك، وتهاونتَ فى أَداء ما عليك من الفرُوضِ والواجباتِ ، رأَيتَ نفسَك — بين أَفذاذِ مُعاصريك — قزَمًا ضئيلًا لا خطرَ لكَ ولا شأْنَ . فإيَّاكَ .

الأَقزامُ والْعمالِقَةُ

زَعمُوا رِجالًا كالنَّخِيل جُسُومُهُمْ
وَمَعاشِرًا ، قاماتُهُمْ أَشْبارُ
إنْ يَصْغرُوا — أَوْ يَعْظُمُوا — فَبِقُدْرَةٍ
وَلِرَبِّنا الْإعْظامُ والْإِكْبارُ
يُسْتَصْغَرُ الْحَىُّ الْحَقِيرُ ، وَتَحْتَهُ
أُمَمٌ تَوَهَّمُ أَنَّهُ جَبَّارُ

(أبو العلاء)

١ – تعليمُ « جَلِفَـــــــر »

لم يكن أبى غنيًّا ولا فقيرًا ، فقد كان دَخْلُهُ السَّنوِىُّ يكادُ يَفِى بحاجات أُسْرَتِنا على الكَفافِ ، ولم يكن يملك إلّا ضَيْعَةً صغيرةً فى « نُوتِنْجهامَ » يُنفِقُ منها على أولادِهِ الخمسةِ ، وقد كنتُ أوسطَهم . وما إن بَلَغْتُ الرابعةَ عشرةَ مِنْ عُمُرى ، حتى أدخلنى مدرسةَ « عَمَنْويلَ » بجامعة « كَمْبرِدْجَ » حيث قضيتُ ثلاثَ سَنواتٍ فى الدرسِ والتحصيلِ بجِدٍّ واجتهادٍ ، ثم عجزَ أبى عن مواصلة الإنفاقِ علىَّ ، فاختارَ لى أُستاذًا مشهورًا بمدينـة « لَنْدنَ » اسمهُ الدكتورُ « جاك بِتْسُ » ليمرِّننى على الجِراحة ، ويفقِّهنى فى الطبِّ . فقضيتُ عندهُ أربعَ سنواتٍ ، لم أكنْ أظفرُ – فى خِلالِها – من أبى إلّا بقليلٍ من النُّقود يبعث بها إلىَّ بين حين وآخرَ . فأخذتُ نفسى بالتقتيرِ لأنفقَ تلك النقودَ الضئيلة فى شِراء ما أحتاجُ إليه منَ الكتبِ الرياضيةِ وكتبِ السياحةِ . فقد أعدَدْتُ نفسى – منذ نَشْأتى – لركوبِ البحارِ ، وشعَرْتُ أنى لم أُخْلَقْ إلّا لأكونَ ملّاحًا ، وما زالَ ينمو فىَّ هٰذا الميْلُ حتى غلبنى على أمرى ، وملكَ علىَّ كلَّ نفسى .

٢ – زَواجُ « جَلِفَـــــر »

ثم تركتُ الدكتورَ « بِتْسَ » وعدتُ إلى أبى ، فجمعتُ — من عَمِّى وأقاربى — أربعين جنيهًا لأذهبَ بها إلى « هُولَنْدا » وأتعلمَ صناعةَ الطبِّ فى مدينة « لِيدِنَ » . وضَمِنَ لى أهلى أن يرسلوا إلىَّ أربعين جنيهًا أُخرى فى العام القادم . وقد بذلتُ جُهْدى كلَّه متفقهًا فى درس الطبِّ عامين ، لأننى كنتُ على يقين من أنه سيكون لى خيرَ مُعينٍ فى أسفارى ورِحْلاتى القادمة .

وما عُدْتُ من « ليدِنَ » حتى عُيِّنْتُ جَرَّاحًا بأحد الْمَشافِى (الْمُستشفيات) بوساطة الدكتور « بِتْسَ » حيث مكثتُ ثلاثَ سنواتٍ ونصفَ سنة ، قمتُ فى خِلالها بكثيرٍ من السِّياحات فى البلاد الشرقية . وما كِدْتُ أنتهى من ذٰلك حتى صَحَّتْ عزيمتى على الإقامةِ بِمَدِينَةِ « لَنْدَنَ » ، وشجَّعنى الدكتورُ « بِتسُ » على تحقيقِ هٰذه الفكرةِ ، فقد عَهِدَ إلىَّ بأمر العناية بِمَرْضاهُ .

ثم اكْتَرَيْتُ طَبَقًا صَغيرًا فى أحَدِ فنادق « لَنْدَنَ » ، وتزوَّجْتُ سيِّدةً كريمةً أبوها تاجرٌ ، فمنحتنى أربَعَمِائةِ جنيهٍ ، فادَّخرْتها للحاجةِ ، لتكونَ عونًا لنا على الأزَماتِ والشدائدِ .

٣ — دَواعِي السفرِ

وما إن ماتَ الدكتور « بِتْسُ » حتى حلَّ بصناعتى الكسادُ ، وقلَّ عملى بعد أن فقدتُ أكبر نَصيرٍ لى فى الحياة . ولم يكن أمامى وسيلةٌ للنجاحِ فى صناعتى إلَّا أن أسْلُكَ سُبُلًا لا يرتاحِ إليها ضميرى ، ويأباها علىَّ شرفُ مِهْنتى . فقد كان أكثرُ الأطباء حينئذٍ يَلْجَئون إلى وسائل الخداعِ والدَّجْل (أي الكَذِبِ) ، ليُرَوِّجوا لِمِهنتهم ، ويستدِرُّوا الكَسْبَ بتلك الوسائلِ الدَّنيئة التى لا أرْتَضِيها لنفسى — مهما تشتدُّ بِىَ الفاقَةُ — فلم أرَ وسيلة للخروج من هٰذا المَأْزِق إلَّا الهجرة والرحيل إلى بلادٍ أخرى ، تلمُّسًا للكسب ، فاسْتَشرْتُ — فى ذٰلك — زَوْجى وخُلَصائى فلم يُمانِعوا . وثمةَ صَحَّتْ عزيمتى على السفر ، واشتغلت طبيبًا فى إحدى السُّفنِ الكبيرة، وظفِرْت بقِسْطٍ من الثروة ، بعد أن رحلتُ عدة رِحْلات إلى الهند الشرقية والغربية وغيرها . وكان جُلُّ هَمِّى أن أُطالِعَ كتب المؤلِّفين القدماء والمُحْدَثينَ ، وأن أُعْنَى بدرس أخلاق الشعوب ولُغاتِهم ، وساعدتنى ذاكِرَتِىَ القوية على ذٰلك . وكانت آخرُ رِحْلة لى غيرَ موفَّقة ، فاعتزمت أن أعود إلى بلدى وأَقْضِيَ حياتى بين زوجى وأولادى . وقد لبثت بعد عودتى ثلاث سنوات أُؤَمِّلُ خلالها

أن أجد عملًا — يكفيني وأهلي — فلم أظفر بطائل . فاضطُررت إلى السفر مرة أخرى فى سفينة كانت ذاهبةً إلى جزائر الهند الشرقية ، فأقلعت بنا من « برستولَ » فى ٤ مايو سنة ١٦٩٩ . وكان أولُ الرحلة موفقًا سعيدًا ، ولم نكن نعلم ما يَخْبَؤُه لنا القدر من النكبات والمَصائب .

٤ — هُبوبُ العاصفةِ

وقد لَقِيتُ فى رِحلتى كثيرًا من الحوادث التى لا تَعْنِى القارئَ كثيرًا ، فَلْأَضْرِبْ عنها صفحًا ، ولْأَكتفِ بذكر الحادثة التى تركت فى نفسى أكبر الأثر .

ما كادت السفينة تقترب من نِهاية الرحلة حتى تبدَّلَ كل شىء — فقد كان البحر هادئًا جميلاً، وكنَّا سُعَداءَ برحلتنا البهيجة — ففاجأتنا عاصِفةٌ هوجاءُ ، فاضطرب البحر وهاجَ ، وتعالت الأمواج كالجبال ، وما زالت العاصفة تشتد وتعنُف ، والمَلاحُون يَبْذلون أقصَى جهودهم فى مغالبتها ، حتى لقد مات منهم اثنا عشَر رجلاً — لشدة ما كابدوه من الجُهد والإعياء — وأصبحنا نتوقعُ الهلاك بين لحظه وأخرى . وفى اليوم الخامس من نوفمبر ، وهو أول يوم من أيام الصيف فى تلك البلاد ، أبصرْنا صخرة تقترب منها سفينتنا ، فحاولنا جُهدنا أن نبتعد بالسفينة عنها ، فلم نوفقْ ؛ وغلبتنا الأمواج على أمرنا ، فاندفعتْ بسفينتنا

إلى تلك الصخرة ، فصدمتْها صَدْمَةً عنيفةً ، فتحطمت ألواحها وغَرِقت – لِوَقْـتِها – وغَرِق ملَّاحوها ، ولم ينْجُ منهم إلا ستةٌ كانوا معى .

وقد كان من حسن حظِّنا أن أسرعنا إلى زورقٍ قبل أن تصطدمَ السفينةُ والصخرة ، وما زِلْنا نُسَيِّرُ الزورق بقوة حتَّى قطعنا ثلاثة أميال ، ثم غلَبَنا التعب وأجهدَنا الكَدُّ ، فتركنا أنفُسَنا تحت رحمة الأمواج الهائجة . وبعد قليل هبت ريحٌ شَمالية عنيفة فقلبت زورقنا ، ولا أعرف ماذا أصاب رِفاقى جميعًا ، وأحسَبهم لم ينجُوا من الهلاك . أما أنا فظلِلْتُ أسبح – على غير هُدًى – حتَّى هدأتِ العاصفة قليلا ، وكنت كلما دبَّ اليأس إلى قلبى اعتصمتُ بالصبر وتعلَّقت بالأمل ، حتى نُهِكَتْ قُوایَ ، ولم أستطع حَرَاكًا ، فاستسلمت للقدر ، وفوَّضتُ أمرى إلى الله . وإنِّى لكَذٰلك إذ قذفتنى موجة قوية نحو الشاطئ ، فرأيت الأرضَ قريبةً منى ، فسِرْتُ حتى وصلت إلى ساحل البحر ، وفتَّشت عن مكان آوِى إليه ، فلم أجد أثرًا لإنسان أو نبات . فاستلقيت على ظهرى ونمت نومًا عميقًا – لشدة ما أحسستُ من الجوع والنَّصَبِ – ولم أستيقظ من نومى إلا بعد تسعِ ساعاتٍ كاملةٍ .

في بلاد الأقزام

الفصل الأول

١ — في قبضة الأقزام

لم أكد أُفيق من نومى حتى رأيتُ نور الشمس قد ملأ الدنيا ، فحاولت أن أنهض، فرأيتُنى لا أستطيع النهوض ، وذهبتْ مُحاولتى عبثًا ، فلقد وجدتُنى مستلقيًا على ظهرى وأنا مُوثَقُ اليدين والسّاقين ، وقد شُدَّ شَعَرى إلى الأرض بخيوط دقيقة ، ورأيت كثيرًا من تلك الخيوط ملفوفًا حول جسمى — من الْمَنكِبيْن إلى الفَخذَيْن — وكانت الشمس مُرسِلة أشِعّتها القوية على عينيَّ ، فحاولت أن ألتفت يَمْنَةً أو يَسْرَةً فلم أستطع إلى ذلك سبيلًا. وقد تأذّتْ عيْناى بِوَهَجِ الشمس، وكادتا تَتْلَفَان ، ثم طرقت أُذُنَيَّ أصواتٌ خافِتة غريبة بالقرب منى ، فحاولت أن أرى مصدرَها ، فلم أستطع أن أتبيَّنَه ، لأن ضوء الشمس —الذى كاد يُتلف عينَيَّ — منعنى أن أرى شيئًا . ثم شعَرْت بأشياءَ تتحرك على ساقِ اليُسْرَى مُرتَقِيَةً بخفَّة إلى صدرى ، وما زالت سائرةً حتى وصلت إلى ذَقَنى !

وشدَّ ما كانت دهشتى حين رأيت أمامى وجه إنسان صغير لا يَزيد طولُه على إصْبَعَين ، و بيده قوس وسهم صغيران ، وعلى ظهره جَعبة مملوءة بالسِّهام الصغيرة . ثم رأيت نحو أربعين شخصًا — فى مِثْل طوله وهيئته وزِيِّه — فصرخت من فَوْرى صرخاتٍ مزعجةً . فأسرعتْ تلك الحشراتُ الآدمية هاربةً ، وامتلأت قلوبُهم رُعبًا وهَلعًا ، وأُصيب بعضهم — كما علمت فيما بعدُ — بجروح خَطِيرة حين هَوَوْا إلى الأرض . وقد حسِبْتُنى خلَصت من شرهم ، ولكننى لم ألبث أن رأيتهم يقفزون على جسمى مرة أخرى ، وقد جَرُؤَ أحدهم فتقدم حتى وصل إلى وجْهى ورفع يديه وفتح عينيه مُتَفَرِّسًا فى ملامِحى ، وقد بدت على أساريره أماراتُ الدهشة والعجب ، ونطق بجملة لم أفهم معناها ، فأعادها رفاقه مُهَلِّلين مكبِّرين .

٢ — حــــربُ الأقزامِ

وفى استطاعة القارئ أن يمثِّل لنفسه حَرَجَ موقفى ، وشدة دهشتى حين رأيتُنى مُكَبَّلاً مُوثَقًا بالحبال من غير جَرِيرَةٍ ارتكبتُها . وقد كان من الطبيعى أن أبذل كلَّ ما فى وُسْعى لأتخلصَ من تلك القيود ، فرفَعتُ رأسى — بقوة شديدة — فانقطع كثير من الخيوطِ الدقيقةِ التى شُدَّ بها شعَرى من الجهة

اليمنى ، وقد تألَّمْتُ لذٰلك أَلمًا شديدًا ، وَلٰكننى استطعتُ أن أُحرِّكَ رأسى يَمْنَةً ويَسْرَةً فأَرىٰ شيئًا مما حولى ، ثم جَذَبْتُ يَدِيَ اليمنى بقوة فقطعتُ الخيوطَ التى أوثقونى بها .

وما إن رَأَى الأقزامُ ما صنعتُ ، حتى شمِلهمُ الفَزَع ، وهربوا مذعورِين ، ونطق أحدهم بجملة لم أفهمها ، وما أَتمَّها حتى أَطلق أَصحابُه أَكثرَ من مائة سهم على يدىَ اليمنى ، ثم أَتْبعوها بسهامٍ — لا عِدادَ لها — قذفوا بها فى الهواء ليُرهبونى ، فأَكفَّ عن مُقاومتهم . وقد أَحسست من وقعِ هٰذه السهام مِثلَ وَخْزِ الإِبَرِ ، وتألَّمْتُ منها — على دِقَّتها وصِغَرِها — أَشد الألم .

فصبَرت قليلًا ، ثم تَجمَّعَتْ شجاعتى ، فهممت بفكِّ قُيودى

مرّة أُخرى ، وما فعلتُ حتى أَمْطَرَنى الأقزامُ وابِلاً من سهامهم الدقيقة ، وكنت — لِحُسن حظِّى — مُرتدياً صِداراً من جلد الجاموس ، فلم تنفُذ إلى صدرى سهامهم .

ولمَّا رأَيت أَن كلَّ محاولة للفكاك لن تَنْتُج إلا شرًّا ، آثَرْتُ الهدوء والسَّكينةَ ، وانْتَوَيْتُ البقاء إلى الليل ليتسنَّى لِى فَكُّ قيودى فى الظلامِ .

٣ — خَطيبُ الأقزامِ

وما إن رأَوْا هدوئى واستسلامى ، حتى كفُّوا عن إطلاق سهامهم ، وكنتُ أَراهم يزدادون زيادة مُطَّرِدة — لَحْظة بعد أُخرى — فلم تُخِفْنى كثْرةُ عَددهم، لأَنى كنت على يقين من قدرتى على الفَتْك بأَكبرِ جيش من جيوشهم ، وسحقهِ بأقدامى — مهما يكْثُرْ عددُه — بأَيسر جُهد . وبعد قليل سمعت صوْت عمَّال منهمكين فى العمل ، فأدرتُ رأْسى يَسْرَةً ، فرأَيت جماعة من الأَقزامِ يعملون بِجدٍّ فى إقامة مِنْبَرٍ على جانبيه سُلَّمانِ ، فلما أَتَمُّوه صَعِد إليه سَيِّدٌ مِن سَراتِهم ، ولم يكد يبلغ أَعلاه حتى نَهَكَهُ التعب . وكان ارتفاع هٰذا الْمِنْبَرِ الذى أَعْلَوْهُ قدمًا ونصفَ قدم ، وقد صعِد — مع هٰذا السَّرِىِّ —

ثلاثةٌ من خدمهِ ، فوقف واحد منهم إلى يمينه ، وآخرُ إلى يساره ، وثالثٌ من ورائهِ يحمل أَطرافَ ثوْبهِ الطويل . ثم أَخذ الخطيب يُلْقِي عليَّ خطبة طويلة لم أَفْقَهْ منها كلمةً واحدة . وكان يصيح بأعلى صوته ، وأَنا لا أَكاد أَسمع منه إلَّا جَرْسًا خافتًا ، وهو على قيدِ شِبْرٍ منى ، وكان صوْتُهُ الخافتُ مناسبًا جسمَه الضَّئيلَ ، ولم يكن شابًّا ولا شيخًا ، بل كَهْلًا تَلُوحُ على وجههِ أَمارات النشاط والْجِدِّ وقد عرفتُ — من حركاتهِ وَإشاراته ، وَطَلاقة لسانه ، وإعجاب سامِعيه بحسن بَيانِه — أنه من خُطبائهم النابغين الْمُتَصَرِّفين فى فنون القول وأساليب البيان .

ورأَيت من حسن الأدب أَن أَرُدَّ على خطبته — وإن لم أَفهم منها كلمة واحدة — بإشارات الخضوع والاستسلام . فهمست بكلمات خافتة حتى لا يُؤْذيَه صوتِيَ الطبيعيُّ الذى كان — لارتفاعه — يُزْعجهم ويُؤذيهم ، ويُصِمُّ آذانهم ، وَأَشَرْتُ إليه بما يفهم منه أَننى جائع ، فنزل عن مِنبره ، وأَمر من حولهُ بإحضار ما أَحتاج إليه من طعام وشراب .

٤ — طعام « جلفر »

وبعد قليل أَحضروا إليَّ من الطعام والشراب ما حَسِبوا أَنه يكفينى ، ثم

صَعِدَ إِلَيَّ أَكثرُ من مائة قزَم على سلالمَ وضعوها على جسمى ، وساروا مُرْتفعين إلى فمى ، وفى أيديهم سِلالٌ مملوءة باللحم والخبز ، وكانت خِرْفانُهم لا تزيد على حجم الضفادع الصغيرة ، فكنت ألتهم خمسة منها وستة أرغفة فى فمى مرة واحدة ، وَهُمْ يَدْهَشون من ذلك ، ويتملكهم الذُّعر والفزع . ثم اشرت إليهم أننى فى حاجة إلى الماء ، فأحضَروا إلىَّ أكبرَ برْميل عندهم ، وما زالوا يدحرجونهُ حتى اقترب من فمى ، ففتحوه فجرَعْتُهُ كله جرْعَةً واحدَة ، فصفَّقوا مدهوشين مما رأَوْا ، ورقَصُوا من شدة الفرح — ولهم العذر فى ذلك — فإنهم لم يروْا فى حياتهم رجلا فى مثل هذه الضخامة ، ولقد كنت بين هؤلاء الأقزام كأننى جبلٌ شامخ ، وقد أكلت من طعامهم ما يكفِى لغذاء جيشٍ كبير منهم شهرًا كاملاً . وقد كانوا فزِعِين من رُؤْيتى ، فلما أمِنوا بطْشى ورَأَوْا استسلامى وهدوئى ، انطلقوا يُغنُّونَ ويمْرَحون ، وتزاحموا إلىَّ يرقصون على صدرى ، وقد استولى عليهم السرور والابتهاج .



وقد كان فى قدرتى أن أقذف بهم إلى الأرض ، وأن أُهلكهم فى لحظة

واحدة ، ولكننى رأيت — من كرمهم وحسن معاملتهم — ما لم يكن يخطر لى على بال ، فلم ألجأ إلى القوة ، ولم أشأ أن أعكر عليهم صفاءهم وابتهاجهم .

ولما انتهيت من طعامى شعرت بحاجة إلى النوم ، وقد علمت — فيما بعد — أن الإمبراطور كان قد أوفد سفيره لنقلى إلى مدينته ، وأن ذلك السفير قد أمرهم بوضع مادة منومة فى شرابى الذى سقونيه ، وقد أعجب سفيرُ الإمبراطور بهدوئى واستسلامى ، فأشار إليهم بكلام لم أفهمه ، فأحضروا إلىّ دواء شممتُ له رائحة ذكية ، فمرهموا جروحىَ التى سببتها سهامهم ، فشُفيت فى الحال ، وزالت آثار السهام ، ثم أمرهم أن يقطعوا بعضًا من الخيوط التى أوثقونى بها ، لأتمكن من النوم على جانبى ، وما كادوا يقطعونها حتى استسلمت للنوم ، وما زلت نائمًا ثمانىَ ساعات كاملة .

٥ — مَهارة الأقزام

وكان لهؤلاء الأقزام خبرةٌ عجيبة بعلوم الهندسة ، ومهارةٌ فائقة فى كل ما يُزاولونه من الأعمال ، فما إن أمرهم سفيرُ الإمبراطورِ بنقلى إلى عاصِمة المملكة ، حتى ذللوا كلّ عقبةٍ فى سبيل تنفيذ إرادته

وقد علمت – فيما بعد – أنه عَهِد إلى خمسة آلاف نجّارٍ ومهندس بعمل عربةٍ كبيرة يحملونني عليها ، على أن يكونَ ارتفاعُها ثلاثَ أصابعَ وطولها سبعَ أقدامٍ وعرضُها أربعَ أقدام ، وبها اثنتان وعشرون عجلةً . فلما انتهوْا من صُنعها ، أقاموا ثمانين عمودًا ارتفاعُ كلٍّ منها قدمان ، وفى أعلاه بَكَراتٌ ، ثم أنفذوا خيوطًا متينة مُحكمة الفَتْل فى هٰذِهِ البكرات ، وفى آخر كلِّ خيطٍ منها شِصٌّ ، ثم ألقَوْا عَلَيَّ تِلْكَ الشُّصوصَ وشدُّوها بقوةٍ . وتعاوَن تِسْعُمائةٍ من أقويائهم على شدِّ تلك الخيوط ، حتى وَضعونى فى تلك العربةِ ، وأنا مستغرقٌ فى نوم عميق . وقد أنجزوا كلَّ هٰذا العمل فى نحو ثلاث ساعات ، ثم شَدُّوا إلى تلك العربة ألفًا وخَمْسَمائةِ جوادٍ من أقوى خيول الإمبراطور ، وكان ارتفاعُ كلِّ جواد منها أربعَ أصابعَ ونصفَ إصبعٍ . ثم سارت العربةُ فى طريقها إلى مدينة الإمبراطور .

٦ – فى أنْفِ « جَلِفَر »

وما زالت العربةُ سائرة نحوَ أربع ساعاتٍ ، ثم استيقظت فجْأةً

لوقوع حادث عجيب ، فقد وقفت العربةُ فى الطريق ريثما يَتِمُّ إصلاحُ عَطَبٍ يَسِيرٍ أصاب أحد أجزائها ، وفى أثناء وقوف العربة دفع الفضولُ ثلاثةً من الأقزام إلى التمتع برؤية جسمى ووجهى ، فتقدم أحدُهم إلى أنفى ، وكان ضابطًا جريئًا طُلَعَةً يميل إلى الدُّعابة والمزاح ، وكأنما أراد أن يَخْبُرَنى ويقفَ على تركيب جسمىَ الضخم العجيب . وما إن وَصَلَ إلى أنفى ورأى طاقتَيْه حتى خُيِّل إليه أنَّهما كهْفانِ ، فدفعه فضولُه إلى سَبْرِ غَوْرِهما ، فوضع فى إحداهما رُمحَه الصغير ، وحين أحسست وخزةَ رمحه فى أنفى عَطَسْتُ . فتقاذف من أنفى رشاشٌ نَفَذَ إلى الضابط كأَنه رَصاص ، فانقلب على ظهره من شدة الذُّعر ، وعاد أدراجَه هو وَرفيقاه وهم يرتجفون من شِدَّة الخوف .

٧ – استئنافُ السَّيْر

ثم استأنفت العربةُ سيرها ، وما زالت سائرةً بقية النهار ، حتى إذا أدرَكَنا الليلُ ، قام على حراستى خَمْسُمائةِ حارسٍ ، يحملون قِسِيَّهم وَسِهامَهم ، ليسدِّدوها إلىَّ إذا حاوَلْت الفَكاكَ من أَسْرِى . وإلى جانبهم خمسمائة قَزَمٍ يحملون المشاعِل لتُضىء لهم السَّبيل .

واستأنفنا السير مرة أُخْرى حين أشرقت الشمسُ ، وما زلنا سائرين إلى وقت الظُّهر ، فلم يبقَ بيننا وبين المدينة إلا مائتا ذراعٍ ، فرأينا الإمبراطورَ وجميعَ رجالِ حاشيته قد خرجوا لاستقبالنا وَالتقَوْا بنا فى ذلك المكان ، وكان الإمبراطور شديدَ الشَّوق إلى رُؤيتى — بعد ما سمعه عنِّى من الغرائبِ وَالمُدْهِشات — وقد رأيته فى مَوْكبٍ حافلٍ ، وقد حاوَل أن يتقدم نحوى ، فحذَّره بعض أتباعه الدُّنُوَّ منى ، والصعودَ إلى جسمى ، حتى لا يحدثَ له مكروهٌ ، أو يصابَ بأذًى .

٨ – الهَيْـكلُ المهجور

وكان فى ذلك المَكان الذى حللْناه معبدٌ قديم ، وهو يُعَدُّ بحقٍّ أكبرَ هيكلٍ فى جميع أرجاء المملكة ، وقد كانوا يصلّون فيه ، ثم هجروه بعد أن تدنَّس منذ بضعِ سنوات ، فقد وَقع فيه حادثُ قتل ، فأصبح — على حسَب تقاليدِهم وعاداتهم — دَنِسًا بعد أن كان مُقَدَّسًا ، فهجروه بعد أن نقلوا كلَّ ما فيه من أثاثٍ وَطُرَفٍ إلى معبد آخرَ . وكان ارتفاعُ الباب الشَّمالىِّ الكبيرِ أربعَ أقدامٍ وَعرضُه قدمين ، وَبه نافذتان ترتفعان

عن سطح الأرض إِصْبَعين ، وَطولُ كلّ منهما ستُّ أَصابعَ .

ثم جاءوا بإِحدَى وَتسعين سلسلةً فى حجم السلاسل الرقيقة التى نُعلِّقُ بها ساعاتنا ، وكان طولُ كلٍّ سلسلةٍ منها ستَّ أقدام ، فشدُّوها إلى ساقِيَ اليُسْرَى ، وأَحْكَموا رِباطَها بستةٍ وثلاثين قُفْلاً حتى لا يدَعوا لِي وسيلةً للفِرار .

٩ — البُرْجُ العالى

وكان أمامَ ذلك الهيكل — وعلى مسافة عشرين قدماً منه — بُرْجٌ عالٍ ارتفاعُه خمسُ أقدام ، فصعِد الإمبراطور وحاشِيَتُه إلى ذِرْوَته ليتسنَّى لهم رؤيتى والتَّحَقُّقُ من شكْلى ، وهم بِمَأْمَن من كل خطر ، واشتد زِحامُ الشعبِ حوْلى ، فقد ذاعَ صِيتى فى أَرجاء تلك البلاد ، وأقبل الناس من كل مكان ، ليرَوْا ذلك العِمْلاقَ الهائل ، الذى أطلق عليه أهلُ تلك البلاد اسمَ « الجبَلِ الآدَمىِّ » ، فتوافَدوا مُسْرِعين إلى رؤيتى ، وصعِد إلى جسمى نحو عشرة آلاف قزَم ، فأشفق

الإمبراطورُ عليَّ وأمر بإنزالهم جميعًا ، وحرَّم على شعبه الصُّعودَ إلى جَسَدى ، وهدَّد من يخالف أمرَه بالقتل .

* * *

ثم أمر الإمبراطور بقطْع الخيوط التى كانوا قد أوثقونى بها من قبل — فنهضت واقِفًا ، وسرت حول الْوَتِدِ الذى شدُّوا إليه السلاسل ، فى دائرة قصيرة أمام ذٰلك الهَيْكلِ العَتِيقِ . وليس فى وُسْع إنسان أن يتصور مقدار دهشة هٰذا الشعبِ وعَجَبه حين رآنى واقفًا على قدمىَّ ، وكان طول تلك السلاسل نحو سِتٍّ أقدام ، فأصبحت أستطيع أن أروحَ وأَغْدُوَ فى شكل نصف دائرة .

١ — زِيارَةُ الإمْبِراطورِ

وفى ذاتِ يوم جاء الإمبراطور ليرانى فى سِجْنى — وهو راكبٌ على ظهر جواده — وقد كبَّدَتْه تلك الزيارةُ كثيرًا من المتاعب التى تغلَّب عليها بشجاعته وثبات جَأْشه ؛ فإن جوادَ الإمبراطور أَجْفَلَ من شدة الخوف حين رآنى ، ولولا قوةُ الإمبراطور ودُرْبَتُه ومهارته فى الفروسية لوقع عن ظهر جواده ، ولكنه ظل لمهارته ثابتًا رابِطَ الجأش ، وكأنه لم يحدث شىء . وقد أسرع رجالُ حاشيته فأمسكوا بِعنانِ جواده ، فترجَّل الإمبراطورُ وأخذ يُجيلُ نظره فىَّ ، ويدور حولى ليرانى من كل جهة ، وهو بعيد عن متناوَل يدى ، حتى لا يَعرِّضَ نفسَه للأخطار ، وجلستِ الإمبراطورةُ وأمراءُ القصر وأميراتُه على مقاعِدَ أُعِدَّتْ لهم على مسافةٍ قريبة . وكان الإمبراطورُ أَطْوَلَ من رأيتُه من هؤلاء الأقزام وأقوامهم بأسًا ، ولهذا أصبح مَوْضِعَ

هَيْبَتِهم وإجلالِهم . وهو أقْنَى الأنْفِ ، زيتونيُّ اللَّون ، مُتَناسِبُ الأعضاء ، دَمِثُ الخُلُق ، رَزِينٌ ، تتجلَّى فى كل حركاته مظاهرُ الدَّعَةِ والجلالِ . وكان فى التاسعةِ والعشرين من عمره ، وقد مرت عليه سبعُ سنوات تقريبًا وهو جالس على العرش .

وقد اضْطَجَعْتُ على جَنْبِي لأتمكن من رؤيتِه ، والتفرُّسِ فى ملامحِه ، وكان يقترب منى أحيانًا فيصبح فى متناول يدى ، فلم يغِبْ عنى شىءٌ من دَقائق ملامحه وشكله . وكان على رأسِه تاجٌ ثمين من الذهب مُحلًّى بالجواهر ، وقد حمل فى يده سيفَه مُصْلَتًا ليدافِعَ به عن نفسه ، إذا حاولتُ قطعَ أغْلالى ، أو هممتُ أن أبطِشَ به . وكان طولُ سيفه نحو ثلاثِ أصابِعَ ، وغِمْدُه وقَبْضَته من الذَّهبِ المُرَصَّع بالماس .



أما صوتُ الإمبراطور فهو — على خُفُوتِه — جَلِيٌّ واضح النَّبَرات

وكانت سَيِّدات القصر ورجال حاشيته يرتدون أفخر الثِّياب المُوَشَّاةِ

بالحجارة الكريمة . وقد تحدث إلىّ الإمبراطور فلم أُدْرِك شيئًا من كلامه ، ولكننى أجبته بلُغتى فلم يفهم ما أقول ، ولبث الإمبراطور وحاشيته ساعتين ، ثم تركونى وحولى من الحرس عددٌ كبير . ليحُولوا بينى وبين جمهرة الشعبِ الْمُتَزاحِمِ الذى كان يحاول الدُّنُوَّ منى بكل وسيلة .

٢ — جَزاءُ الأشرارِ

ولم يخلُ هٰذا الشعب من فُضولِيِّينَ أشْرارٍ ، فلقد وصَلَتِ الْجُرْأَةُ ببعضهم إلى حد أن رشقنى بالسِّهام ، وقد سدَّد أحدهم سهمًا إلى عينىَ اليُسرى لِيَفْقَأها ، فرأى القائدُ الْمُوَكَّلُ بحِراستى أن يَدْفَعَ عنى هٰذا الأذَى ، فألقى القبض على ستة من زُعَماء الأشرار ، ولم يرِ عِقابًا يُكافِئُ جُرْمَهم إلا أن يَشُدَّ وَثاقَهم ، ويدفعَهم بين يدىَّ لأُنكِل بهم جزاء خُبْثِهم ومحاولتِهم القتلَ بى . فأمسكت بهم فى يدىَ اليمنى ، ووضعت خمسة منهم فى جيب صِدارى ، وأَدْنَيْتُ السادس من فمى متظاهرًا بأننى سآكله حَيًّا .



فظَلَّ ذلك القزَمُ المسكين يُرسل صَرَخاتٍ مؤلِمَة ، واستولى الجزع على القائد وجنوده حين رأوْنى أُخرج من جيبى مُدْيَة صغيرة . ثم تبدل جزَعُهم وخوفهم بِشْرًا وائْتِناسًا حين رأَوْنى أقطع الخيوط التى أوثقوه بها وأضعهُ – مُتلطِّفًا – فوق الأرض. وما رأى القزَمُ نفسه طليقًا حتى أسرع فى فِراره ، وهو لا يكاد يُصَدِّق أنه نجا من الهلاك . ثم أخرجتُ رِفاقَه من جَيْبِ صِدارى – واحِدًا بعد آخرَ – وفعلتُ بهم ما فعلته بصاحبهم . وقد عطَف علىَّ القائدُ وجنوده ومَن حولَهم من الشعب ، وبَدَتْ على وجوههم أماراتُ الحب والتقدير، حين رأَوْا كَرَمَ خُلُقِى وتَرَفُّعى عن الانتقام من أعدائى – مع قدرتى على الفتك بهم – وقد ذاع بين جميع السُّكان أننى رجل كريم خَيِّرٌ ، وعلم رجال الحاشية – بعد قليل – بما صنعتُ ، فكان لذلك أحسنُ وَقْعٍ فى نفوسهم .

٣ — عاقِبَةُ الإحْسانِ



ولقد تهافت الفُضوليُّون والكُسالَى على رؤيتى ، وجاءوا إلىَّ من كل أنحاء الإمبراطورية ، وقد ذاع نبأ قدومى فى كل مكان ، وكادت القُرَى تخلو من ساكنيها ، فتُعطَّل الزراعة والصناعة ، وتقف حركةُ البيع والشراء ، فقد وفد الأقزام لرؤية العِمْلاق أو « الجبل الآدَمِيِّ » كما يُسَمُّونه . ولكنَّ جلالةَ الإمبراطورِ خَشِيَ سوءَ العاقبة ، فأمَرَ بألا يحضُر إلىَّ أحدٌ إلا بِتَرْخِيصٍ ، وضريبة يفرضُها عليه ، وقد رَبِحَتِ الحكومةُ من جَرَّاء ذٰلك أمْوالًا طائلة .

وَفى هٰذه الأثناء عقد الإمبراطورُ مَجْلِسَ الشُّورَى ، لينظر فيما يقرِّرُه فى أمرى ، فقد علمْتُ أن الارْتباكَ قد وصل بهم إلى أقصاه ، فقد كانوا يخشَوْن أن أقطعَ أغْلالى فأصبحَ طليقًا ، وقد رأَوْا — إلى ذٰلك — أن غِذائى

يُكَبِّدهم أموالًا عظيمة ، ويتطلب منهم طعامًا كثيرًا ، ورُبما سبَّب ذٰلك مَجاعَةً فى البلاد ، فقد لا يَفِى غِذاؤُهم كله لإطعامى . ورأى بعضهم أن يكفُّوا عن تغذيتى حتى أهْلِكَ جوعًا فيستريحوا من شَرِّى ، وَرأى آخرون أن يمزِّقوا جسمى بسهامٍ مسمومةٍ ، ولٰكنهم خشُوا أن يتعفَّنَ جسمى فينتشرُ الوَباءُ فى مدينتهم ، ثم ينتقلَ إلى جميع أنحاء الإمْبراطوريَّةِ فَيُهْلِكهم جميعًا .

وَإنَّهم ليتشاوَرون فى أمرى ، وَقد بلغت بهم الْحَيْرَةُ كلَّ مبلغ ، إذ دخل عليهم ضابِطانِ ، فأفضيا إليهم بما صنعتُهُ مع الأقزامِ السِّتة الْمُجْرمينَ ؛ فكان لكلامِهما أحسنُ وقع فى نفس الإمبراطور . وَعطفَ علىَّ جميعُ أعضاء المجلس ، وألَّفُوا لَجْنَةً – فى الحال – لتفرض ضرائبَ على كلِّ قريةٍ من القُرى ، حتى يَحْصُلوا على ما يكفينى من الطعام ، ويقدموا إلىَّ – فى كلِّ صباح – ستةَ عجولٍ وأربعينَ خَروفًا وَمِقدارًا كبيرًا مِن الْخُضَرِ والبُقول والْخُبْزِ والماء وما إلى ذٰلك . وقد أمر جلالة الإمبراطورُ بأن يُدْفعَ ثمن ذٰلك كله من خِزانة الدوْلة ، وعَيَّنَ سِتَّمائة حارس ليقوموا بخدمتى وَحِراستى ، وقرَّر لهمْ كل ما يحتاجون إليه من طعام ، وَقَد نُصِبت لهم الخِيامُ حوْل الهيكل الذى قرَّروا أن يكون بيتى وسِجْنى معًا .

٤ – لغةُ البـــلادِ

وَلم يكتف الإمبراطورُ بذلك كلِّه ، فأمر باستدعاء ستمائة خياطٍ ليصنعوا لى ثوبًا يُشبهُ زِىَّ ساكِنِي هذه البلاد ، واستدعَى ستةَ من كبار العلماء لِيُلقِّنونى لُغة الأَهْلِينَ ، حتى يَسْهُلَ على الإمبراطور والأمراء وغيرهم أن يُبادِلونِىَ الـكلامَ ، كما أمر أتباعَه بأن يُمرِّنوا جياده وَجياد الأمراء وَالحرَس على الجرْى أمامى ، حتى تتعوَّد رُؤْيتى بلا خوْفٍ . وَقد نُفِّذَتْ أوامِرُ الإمبراطور كلها بِدِقَّةٍ تامَّةٍ .

أمَّا أنا فقد بذلتُ جهدى فى تَفَهُّمِ هذه اللُّغة الجديدة ، وَساعدتنى ذاكِرَتِىَ القوية وَرَغبتِىَ الشديدة فى تعلُّمها ، على تفهُّم كثير من أساليبها فى وَقت قصير ، وكان الإمبراطورُ يكثرُ من زيارتى ، وَيُوصى بِىَ المدرِّسين والحُرَّاس ، وكان أوَّلَ ما تعلمتهُ أن أُعْرِبَ للإمبراطور بتلك اللغة عن شكرى وَرغبتى فى الحرِّية . وَقد جَثَوْتُ أمامه على رُكْبَتَىَّ ضارِعًا إلى جلالته أن يَفُكَّ قيودى وَيمنَحَنى حرِّيتى ، فقال لى مُبتسمًا :

« عليكَ بالصبر ، فليس فى قدرتى أن أَبتَّ فى ذلك وحْدى ، فإنَّ ذلك

أمرٌ يعنى الدولة كلَّها ، وَلا بدّ من استشارة وُزرائى فى ذلك ، بعد أن تُقسِمَ أمامى أن تحرصَ عَلَى السِّلْمِ كلَّ الحِرْصِ ، وَألّا تمسّ أحدًا من رَعِيَّتى بسوءٍ . »

فأقسمتُ أَمامه : إننى لا أُضْمِرُ إلّاالخيرَ ، وَإننى لن أُسِيءَ إلى أحدٍ كائنًا من كان ، وَوَعَدتُه بأَن أُحسِنَ مُعامَلتَهُم جميعًا .

فقال لى :

« إنّك — إذا فعلت ذلك — أرضيتنى وَأرضيت شعبى ، وظفِرتَ بحُبِّنا جميعًا . ولكننى علمتُ بأنك تحمل فى جيوبك قَدْرًا من الأسلحة الخطِرة التى تُزَعْزِعُ الأمْنَ فى بلادنا ، فهل تسمح لنا بتفتيشك ؟ »

فقلت له :

« إننى خاضعٌ لكل ما يأمرنى به جلالةُ الإمبراطور ، وإننى مستعدٌّ أن أَنْزِعَ ثوبى أمامه ، وأن أُخرج كلَّ ما فى جيوبى ليأخذ منه ما شاء . »

فقال لى :

« إن قوانينَ الإمبراطورية تقضى بتفتيشك ، ولا سبيل إلى ذلك إلا ...

أن نَثِقَ بأن هٰذا لا يُغْضِبُك ، وقد حقَّقْتَ حسن ظنى بك ، وسأُرسل إليك مُفَتِّشَيْنِ ليفْحَصا عن كل ما تحمله من الآلات الخطرة ، وَإِنى أَعِدُك بأن أَرُدَّها إِليك يوم تَبْرَحُ بلادى ، أو أدفعَ ثمنها لك كما تقدِّره أنت . »

فقلت له :

« إننى مُذْعِنٌ لـكل ما يأمُرُنى به مولاى ، وسأعمل على تحقيق كلِّ ما يُرْضِيه . »

فابتسم لى راضِيًا ، وَوَدَّعنى شاكرًا مسرورًا .

٥ — تَقْرِيرُ الْمُفَتِّشَيْنِ

ولَمَّا جاء الْمُفَتِّشان أخذتُهما فى يدى وَوَضعتهما فى جيوبى لِيرَيا كلَّ ما فيها ، وبذلت لهما كل ما أرادا من مُساعدة ، ولما انتهيا من الفحص ، طلبا إلىَّ أن أُعِيدَهما إلى الأرض ثانِيَةً ، فأنزلتهما — مترفِّقًا بهما — فشكرا لى ، وذهبا إلى الإمبراطور ليبلِّغاه نتيجة تفتيشهما الدقيق ، وقـد رفعا إلى جلالته التقرير الآتى :

« وجدنا يا صاحبَ الجلالةِ الإمبراطورية — بعد أن فحصنا جيوب

العملاق المائل ، وفتشناها تفتيشًا دقيقًا — ما يلى :

(١) قِطعة كبيرة من النسيج الْخَشِن تصلح أن تكون بِساطاً يكفى لفرش حجرة الاستقبال ، وهى أكبر حجرة فى قصر جلالتكم .

(٢) صُندوقاً كبيرًا من الفِضَّةِ عليه غِطاءٌ فِضِّىٌّ ، وقد حاولنا أن نحمله أو نفتحه ، فلم نستطع — لضخامته وثقله — فطلبنا إلى العِملاق أن يفتحَه ، ثم دخل أَحَدُنا فى ذلك الصُّندوق — وهو مملوءٌ بتُرابٍ عجيب — فغاصَ فيه إلى رُكْبَتَيْهِ ، فظلّ يعْطِسُ ساعتين عطْسًا مُتواليًا ، وهبّ من ذلك التراب غُبارٌ قليل فى الهواء، فظل الثانى يعطِس سبعَ دقائقَ كاملة .

(٣) رِزْمَةً (حُزْمَةً) كبيرة من النّسيج الأبيض ، مَطْوِيّةً طبقاتُها بعضُها فوق بعض ، وهى فى طول ثلاثة رجال منا ، وقد شُدّت إلى سِلسلةٍ ضَخْمةٍ متينة منقوشةٍ عليها طلاسِمُ كثيرة نظُنها كتابة بلُغَته التى لا نفهمها .

(٤) عمودَيْنِ أَجْوَفَيْنِ من الحديد . ينتهى كلٌّ منهما بجذعٍ كبير من الخشب مثبَّتٍ فيه ، وفى أَحد طرفيْه قطعٌ كبيرة بارزةٌ من الحديد ، هى أَشبه بنقش لم نهتد إلى فهم معناه ، وفى أَسفله حفرةٌ مثبتٌ فى جوفها مِسمار ضخم من الحديد .

(٥) كثيرًا من قطع معدنية مُستديرة، مختلفة الحُجوم والألوان، بعضها أحمرُ وبعضها أبيضُ، وهى من الفِضة والذهب، ولم نستطع أن نحملها مُتعاونَيْن إلَّا بعد عَناء شديد.

(٦) سَيْفَيْن كبيرين، حدَّاهما مُرْهَفان، وهما فى عُلبة كبيرة.

(٧) سلسلةً ضخْمةً من الفِضة، فى آخرِها آلةٌ عجيبة مستديرة، نِصْفُها من الفضة، والنصف الآخر من مادة برَّاقة تبدو تحتها نقوش غريبة، وهى تلمع لمعانًا عجيبًا، وقد أدْناها العِملاق من آذاننا، فسمِعْنا لها حركةً دائِبة تُشْبه صوت الطاحونة أو السَّاقِيَةِ، وهى – فى ظنِّنا – حيوان مجهول. أو لعلَّها – إذا لم نكن واهِمَيْن – هى الإله الذى يعبُده، وهذا ما نُرَجِّحُه، لأنه قال لنا – وهو يَشرح فائدتها – إنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً من غير أن يستشير هذه الآلة، فهِىَ تُعِينه على أداء كل أعماله، وتُعَيِّنُ له أوقاتَ النَّهار والليل.

(٨) شَبكةً كبيرة تشبه شِباكَ الصَّيادين، وهى تُفتح وتُقفل، وفيها قِطَعٌ كَثيفة من الذهب الذى لا يُقَدَّر بقيمة.

(٩) آلةً كبيرة مثبتًا فيها كثيرٌ من الأعمدةِ الطويلةِ التى تشبه أعمدة فِناء القصرِ الإمبراطورى، ونظنها مُشطًا يرجِّل به شَعره.

(١٠) حِزامًا ضخْمًا مصنوعًا من الجلد الْغليظ ، معلَّقًا فى ناحيته اليُسْرى سَيْفٌ يبلغ طولُه طول ستة رجال منا . وفى ناحيته اليمنى غِرارةٌ كبيرة مقسومةٌ قسْمَيْن ، يسَعُ كلُّ قسم منهما ثلاثة رجال منا ، وقد مُلِئَ أحدُهما بِكُراتٍ كبيرة كلُّ كُرة منها فى حجم رأْسِنا تقريبًا ، ومُلِئَ الآخر بحبوب سُودٍ لا عِدادَ لها ، وقد استطعنا أن نحمل فى يدنا أكثر من خمسين حَبَّةً منها .

هذا هو تقريرُنا عمّا وجدناه فى ثِياب هذا العملاقِ الْوَدِيعِ الذى يسّر علينا عملنا ، وأظهر لنا أقْصَى ما يستطيع من التَّوَدُّدِ والتَّلطف والاِحترام .

وقد أمْضَيْنا تقريرَنا هـذا بعد أن انتهينا من كتابته فى اليوم الرابع من القمرِ التاسعِ والثمانينَ من حكم جلالتكم السعيد .

فِليسين فريلوك ، ومارسى فريلوك

٦ — بينَ يَدَىِ الإمبراطورِ

ولَمَّا سَمِعَ الإمبراطورُ تقريرَ المفتِّشَيْن ، جاء إلَىّ ومعه ثلاثة آلاف جندىٍّ من فُرْسانِه المُدَرَّبين ، وقد أمسكوا بِقِسِيِّهم ، وتأهّبوا للحرب والنِّضال

مُتَرقِّبين أقلَّ إشارة من الإمبراطور ، فلم أعبأ بهم . والتفتُّ إلى الإمبراطور ، فحيَّاني مبتسمًا متلطفًا ، وأمرني أن أُخرِجَ سيفي من غِمْدِهِ ليراه ، وكان قد علاه شيء من الصَّدَإ ، بعد أن ابْتَلَّ بماء البحر ، ولكنه كان — برَغْم ذلك — يلمع في يدي قليلاً . وما إن رأى الأقزام سيفي مُصْلَتًا في يدي حتى علت صرخاتهم ، واشتد صياحهم ، فأمرني الإمبراطور أن أردَّ السيف في غِمْده ، وأن أتلطف في وضعه على الأرض . فلبّيت أمره من فَوْرِي .

ثم طلب إليّ أن أُرِيَه قِطْعَتَي الحديد اللّتين أشار إليهما المفتّشان — وهو يَعْنِي بذلك بُندقيَّتِي ومُسَدَّسي — فقدَّمتهما إليه وشرحت له فائدتهما ، وطريقة استعمالهما ، بقدر ما أستطيع من التعبير ، ورجوت من جلالته ألَّا يفزَع وألا ينزعج ، ثم أرسلتُ طَلْقًا في الهواء فسقط الرجال على ظُهورهم من شِدَّةِ الذُّعْر ، وكأنما سمعوا رَعْدًا قاصفًا . ولم يَشُذَّ الإمبراطورُ — وهو أقواهم بأسًا وأثبتهم جَنانًا — فقد تملَّكه الفزَع ، ولم يَعُدْ إلى رُشْده إلَّا بعد وقت ، ثم قدمت إليه بندقيتي ومسدسي وكيسَ البارود ، وحذَّرته أشد التحذير أن يُدْنِيَ هذا الكيس من النّار حتى لا يلتهب

البارودُ ، فينسِفَ قصره ومدينته نسْفًا ، فعجب من ذلك أشد العجب .

ولمّا قدمت إليه ساعتى ، دَهِش لرؤيتها أشد الدهَش ، وأمر اثنين من جنوده الأقوياء أن يعلّقاها فى عصًا ليسْهلَ عليهما حملُها على كتفيهما .

وقد اشتدت دهشة الإمبراطور وحَيْرته من دَقّاتها المتواصلة ، ومن حركة عَقْرَبِ الدقائقِ ، وظل يُنعم النظر فيها ، ثُمَّ عرضها على أطِبّائه وعلماء بلاده ليُبْدُوا رأيهم فيها ، فحاروا وتَبايَنَتْ آراؤُهم فى تَعْليلِها ، وضلّت أفهامهم فى تعرُّف حقيقتها . ثم قدّمت إليه القِطع الفضّيّة والحديدية التى معى ، ووضعت أمامه كِيس نقودى ، وبه تِسْعُ قطع ذهبية كبيرة وبعض قطع أُخرى صغيرة . ولمّا انتهى من تفحصها ، أعطيته مُشْطى ، وعُلْبَةَ سَعوطى ، ومِنديلى ، وصحيفتى . وقد حمل جنود الإمبراطور سَيفى وبندقيتى وكيس البارود والرّصاص إلى قَلْعَةِ الإمبراطور ، ثم تركوا لى ما بَقِى .

وكنت قد وضعت — فى جَيْب خفِىّ — نظّارتى وبعض أشياء صغيرة أُخرى لا فائدةَ للإمبراطور منها ، ولا غُنْيَةَ لى عنها ، وقد خَشِيت عليها التَّلَفَ أو الضَّياعَ ، فلم أُنَبِّـهِ المفتشيْن إليها ، وادَّخرتها لنفسى لتنفعَنى فى وقت الحاجة حين أُغادِرُ هٰذه البلاد .

الفصل الثالث

١ – نُدَماءُ الإمبراطورِ

وأراد الإمبراطور — ذاتَ يوم — أن يُرَفِّه عنى. ويُمْتِعَ نظرى ، فيَعْرِضَ أمامى — فى حفلة أُنْسٍ وابتهاج — بعضَ مزايا هٰذا الشَّعبِ النشيط الماهر الذى فاق جميع الشعوب التى رأيتها فى حِذْقه وذكائه وَجُرْأَته . وكان أعجبَ ما رأيته فى ذٰلك الْحَفْل المحتشدِ براعةُ الرّاقِصِين على الحِبال ، وَجُرْأَتُهم النادرةُ ، فقد رأيتهم يَفْتَنُّون فى ضُروب الرقص على خَيْطٍ أبيضَ دقيقٍ طولُه اثنتا عشْرةَ قدمًا وإحدى عشْرة إصبَعًا .

وعلِمتُ — من عاداتهم وتقاليدهم العجيبة — أن الذين يخاطرون بأنفسهم وَيُعَرِّضونها للتَّهْلُكة فى أثناء قيامهم بهٰذه الفروضِ الخَطِرة . هم سَرَاةُ الأقزامِ وأعيانُهم . وأبناء الأُسَر الكريمة العريقة فى المجد . وأن هٰذه الألعاب الخَطِرَةَ هى وسيلتهم الوحيدةُ إلى بُلوغ أرقى مناصب الدولة ، والْوُصول إلى منادَمَةِ الإمبراطور .

فإذا خلا مَنْصِبٌ كبير ، لوفاة صاحبه ، أو نَقْمَةِ الإمبراطور منْهُ — وكثيرًا ما نَقَمَ الإمبراطور من ندمائه لِأَتْفَهِ الأسباب — تقدَّم للامتحان خمسة أو ستة من الأقزام الذين يُرَشِّحون أنفسهم لهٰذا الْمَنْصِب ، ويَرَوْن فى أنفسهم القُدْرَةَ على النجاح ، فيستأذِنون من الإمبراطور أن يُهَيِّئَ لهم الفرصة — لتسليته هو ورجالُ الْبَلاطِ — فإذا أذِنَ لهم ، ظَلُّوا يرقصون أمام الإمبراطور وحاشيته — على تلك الحِبال الدقيقة العالية — ويقفزون إلى أعلَى ، فمن فاقَ أقْرانَهُ فى القفز عليها ، واستطاع أن يصل إلى مُسْتَوًى منَ الارتفاع يَعْجِزُ أقرانُه عن بلوغه ، فقد فاز بذٰلك الْمَنْصِب العالى الذى تَطْمَحُ إليه نفسُه .

٢ — تكاليفُ العُلَا

وكثيرًا ما أمر الإمبراطورُ كبارَ موظَّفيه أن يرْقُصوا ويقفزوا على الحبل — مع أولئك المرشَّحين الْجُدُدِ — ليطمئنَّ الإمبراطور على أنهم لَمَّا يفقِدوا كِفاياتِهم ومزاياهم الباهرةَ التى أكسبتهم — من قبلُ — مناصِبهم الرفيعة .

وقد لَقِيَ حَتْفَه كبيرُ صيارِفَةِ الإمبراطورية ، وراح شهيدَ مَهارته وجُرأته ،

وكان يستطيع أن يقفز إلى ارتفاع إِصْبَعٍ فوق الحبل . وهو أقصَى ارتفاع وصل إليه أكبر موظَّف فى الإمبراطورية ، ولم يصل غيره إلى مثل هٰذا



الارتفاع من قبلُ ، وقد رأيتُه بنفسى وهو يقفز على الحبل الدقيق تلك القفزةَ الخَطِرة التى عرَّضته للهلاك والتَّلف ، وقَلَّما خَلَتِ التَّمْرينات من حَوادِثَ مَشْئُومَةٍ ، وقَدْ أثبت أكثَرها سِجِلُّ الإمبراطورية .

٣ — شُهَداءُ الْمَجْدِ

وقد رأيتُ بعينَىّ ثلاثةً من هٰؤلاء الْمُرَشَّحين هَوَوْا إلى الأرض ، فكُسِرَتْ أرجلُهم ، وقضَوْا بقية حياتهم مُقْعَدين .

وكان أخوفَ ما يَتَخَوَّفون منه أن يأمرَ الإمبراطورُ وزراءَه أنفسهم بأن يُبرهنوا أمامه — مرَّةً جديدةً — على كِفايتهم ومهارتهم ، وثَمَّةَ لا يدَّخِرون

جُهدًا فى الفَوْقِ على غيرهم من النُّدماء ، وربما سقطوا إلى الأرض من ارتفاع شاهِق ، وعرَّضوا أنفسهم لأخطار جسيمة .

وقد علمت أن أحد هؤلاء النُّدماء هوى منذُ عام وهو يقفز على الحبل ، وكان لا بُدَّ من تحطُّم رأسِه ، لولا أنه سقط على إحدى وَسائِدِ الإمبراطور ، فنَجا بذلك من موتٍ محقَّق .

وَثَمَّةَ نوعٌ آخَرُ من الألعاب التى يَبْهَجُ الإمبراطورُ بها نفسَه ، وهو وَقْفٌ على الإمبراطور والإمبراطورة والوزراء ، وذلك أن يضع الإمبراطور فوق مائدته ثلاثة خُيوطٍ من الحرير — غايةً فى الدِّقة — طولها سِتُّ أصابعَ ، أوَّلها قِرْمِزِىٌّ ، وثانيها أصفرُ ، وثالثها أبيضُ ، وهذه الخيوط الثلاثة هى جوائز يمنحها الإمبراطور من يَمْتازُ على غيره بالمهارة والجُرأة . فإذا بدأت الحفلة — فى قاعَةِ الاستقبال الكبيرة بالقصر الإمبراطورى — ظَلَّ المُتبارون يَفْتَنُّون فى شَتَّى ضُروب القفز والرقص بمهارة لم أر لها مثيلًا فى أىِّ شعب عرَفْتُه فى كل أسفارى ورِحْلاتىَ الكثيرة السابقة .

٤ – أَنْواطُ الجَدارَةِ

وكان الإمبراطور – في بعض أسْمارِه – يأخذ بطرَفَيْ عَصَوَيْن مُتَوازِيَتَيْن في الفضاء، ويُمْسك رئيسُ وزرائه بالطرَفيْن الآخَرَيْن، ثم يَقْفِزُ عليهما الْمُتَبارون، ولهم في هٰذه اللُّعبة أفانينُ شتَّى، وهي تنتهي بمكافأة الفائز الأول بالخيط القِرْمِزيِّ، والفائز الثاني بالخيط الأصفر، والفائز الثالث بالخيط الأبيض.

وهذه الخيوط هي أَوْسِمَةُ المجد والفَخار في تلك البلاد، ويتخذون منها حَمائِلَ سُيوفهم، أو يجعلونها زينةً لهم، وإشعارًا للعامَّة بما أحْرَزوه من أنْواطِ الجدارة وشاراتِ المجد.

٥ – بين ساقَيْ « جَلِفر »

وفي ذات يوم فكَّر الإمبراطورُ في وَسيلة فَذَّة للتسلية، فحشد فَيْلَقًا كبيرًا من جيشه، وأمرني أن أقِفَ فارِجًا ساقَيّ بقَدْرِ ما أستطيعُ، ثمّ أمر جيشه أن يَمُرَّ منفُرْجَةِ ساقَيَّ لِيَيْعرِضَهُ أمامَه، فمرُّوا صُفوفًا، في كل صَفّ منها أربعةٌ وعِشرون راجِلًا، تَليها صُفوفُ الفُرسان، في كل صفّ منها

ستةَ عشرَ فارسًا ، ثم تَبِعها رجال الموسيقى ، فَحامِلو الأعلامِ الخفّاقة ، فحامِلو الأسِنَّةِ والحِراب المرفوعة .

وكان ذلك الجيش مكوَّنًا من ثلاثةِ آلاف راجِلٍ وألفِ فارس .

وقد أمرهم الإمبراطور أن يَلْزَموا جادَّةَ الأدب ، وألَّا تَبْدُوَ منهم — فى أثناء سيرهم — أيّةُ إشارةٍ تدُل على السُّخْرِيَةِ ، فإذا خالفَ أحدهم أمرَ الإمبراطور كان جزاؤُه القتل .

وما كانت هٰذه الأوامرُ الصّارِمَةُ لتمنعَ بعض الجنود والضباط الفُضوليّينَ من أن يرفعوا أبصارهم إلىَّ — وهم يمرُّون من فُرْجَةِ ساقَىَّ — ويضحكوا ساخِرين أو مدهوشين .

٦ — قُيودُ الحرِّيَة

وبعد انتهاء هٰذه الحفلة ، أَرسلتُ عدة مُذَكِّراتٍ ألتمس بها حريتى ،

وقد حَوَّلها الإمبراطور على مجلس الشورى ومجلس الوزراء، فوافقوا على ذلك كلِّهم، ولم يَشُذَّ عنهم إلا وزيرُ الحرب، فقد عارض أشدَّ المعارضة فى أن أُمْنَحَ الحريةَ. وكان هذا الوزيرُ — لسوء حظى — محبوبًا من الإمبراطور متمتعًا بثقته — لمهارته وكِفايته فى الفنون الحربية — وإن كان ضيِّقَ الفِكر فى شئون الحياة والاجتماع.

وقد طلب ذلك الوزيرُ من الإمبراطورِ أن يضع بنفسه الشروط التى يراها ضرورية لإطلاق سراحى، فأجابه الإمبراطور إلى طِلْبَتِهِ. وقد أَتَمَّ الوزيرُ وضع هذه القُيودِ الثقيلةِ مؤيَّدة بالعهود والمواثيق، حتى يأمنوا جانبى حين أظفَرُ بحريتى. وكان مع الوزيرِ كثيرٌ من سَرَاةِ الأقزام وأعيانِهم، وقد طلبوا إلىّ أن أُقْسِمَ أمامهم إننى لن أُخْلِفَ وَعْدًا، ولن أَنْكُثَ عهدًا، ولن أُخِلَّ بشرطٍ من هذه الشروط كلِّها، إذا فَكُّوا عنى قيودى، وأطلقوا لى حريتى. فأَقسمتُ أمامهم إننى سأُنَفِّذُ كل شروطهم بدقَّة وأمانة، فلم يكتفوا بهذا القسم، وطلبوا إلىّ أن أقطع على نفسى عهدًا وثيقًا بذلك، على طريقة بلادهم فى إعطاء العهود والمواثيق. ورسموا لىَ الخُطَّةَ التى أَتْبَعُها فى إقْناعِهم بحسن نِيَّتِى، وإذعانى لأمرهم. وكانت طريقتهم فى أخذ العهُود والمَواثيقِ عجيبةً

حقًّا ، فقد أَمرونى أَن أَقبض على إبهام رجلىَ اليمنَى بيدىَ اليسرى ، ثم أَضعَ الإصْبَع الوُسْطَى — من يدىَ اليمنى — فوق رأسى ، والإبهامَ على طرف أُذُنِىَ اليمنى ، فلم أتردَّدْ فى تَلْبيةِ كلّ ما طلبوه منى .

٧ – قَرارُ الإمبراطورِ

ولقد عَجِبْتُ من ذلك القرار الذى أعطَونيه ، وإلى القارئ نصَّه :

« نحن جولباستو إمبراطور « ليليبوت » — أعظم وأقوى الناس ، وملاذ اللّاجئين ، ومُرْهِب الأعداء ، وأقوى ملوك الدُّنيا ، والذى يمتد ملكه ستةَ أَميال مستديرة إلى أَطراف الكرة الأرضية : ملك الملوك ، وأعظم العظماء ، وجبّار الجبابرة ، الذى تكاد قدَماه تَخْرِقان الأرض من ثِقَلِهما عليها ، ويكاد رأسُه يلْمِس الشمسَ لطول قامَته وارتفاعها ، والذى تَرْجُفُ منه الملوك إذا رأَتْهُ ، والذى يُقدّسُه شعبه ، لأنه محبوبٌ كالرَّبيع ، لطيف كالصيف ، مُخْصِب كالخريف ، مَرْهوبٌ كالشتاء ، سِلْمٌ لِلأَولياء ، حَرْبٌ على الأعداء — فَرَضْنا على ضَيْفِنا العِملاق ما يأتى :

(١) ألَّا يخرجَ بَتاتًا من أرضنا الفسيحة من غير إذن منا مختومٍ بخاتمنا الكبير .

(٢) ألَّا يدخل عاصمَتنا الآهِلَةَ بالسكانِ من غير أن يُنذِرَ الأهالى بذلك قبل ساعتين من دخوله العاصمةَ ، ليَلزَموا مساكنَهم .

(٣) أن يَقْصُرَ تَنَزُّهَهُ وسيْرَه على طُرُقِنا الفسيحة الكبرى ، وألَّا يَجُولَ أو ينام فى أى حَقْلٍ مزروع ، حتى لا يُتْلِفَ ما فيه من حَرْثٍ .

(٤) أن يحْرِصَ كلَّ الحِرص على ألَّا يَطَأَ بقدمه جسمَ أىِّ فرد من رعايانا ، أو خَيْلِهم أو عَرَباتِهم فى أثناء سيره فى طريقه ، وألَّا يُمسكَ بيده أىَّ إنسان من غير إذْنِه ورضاه .

(٥) أن يحمل البريدَ ويوصِلَه إلى المسافاتِ البعيدةِ ، كلَّما طلبنا إليه ذلك ، وأن يقوم بهذا العمل ستةَ أيام فى كل قَمَرٍ (شهْر) من الأقمار .

(٦) أن يُحالِفَنا ، ويكون عَوْنًا لنا على أعدائنا الذين يقطنون بجزيرة « بليفُسكو » ، وألَّا يدّخر وُسْعًا فى تدمير أسطولهم الذى يُعِدُّونه الآن لِغَزْوِ بلادنا .

(٧) أن يُعِينَ عمَّالنا ويُساعدَهم — فى أوقات فَراغه — على حمل بعض

الأحجار الضَّخْمة التي يبنون بها أسوارَ حديقتنا الكبرى . وجُدْرانَ دُورِنا الحُكومية .

(٨) أن يُقَدَّمَ له ما يكفيه من الغذاء — بعد أن يُقسِمَ على احترام هذا الدستور — وأن يكون غِذاؤه فى كل يوم مِقدارًا من اللحم والسمك يكفى لإطعام ألفٍ وثمانمائةٍ وسبعينَ وأربعةٍ من أفراد رعيَّتِنا ، وأن يكون حُرًّا فى مقابلة شخصنا الإمبراطورى ، وأن يُمنَحَ ما نشاء من المِنَحِ .

صَدر هذا القرار — عن قَصْرِنا — فى اليوم الثانى عشرَ من القمرِ الواحدِ والتِّسعين من حكمنا . »

٨ — حُرِّيَّةُ « جَلِفر »

وما إن أتْمَمْتُ القَسَمَ وأمْضَيْتُ هذه الشروطَ — وأنا مسرورٌ بالظفرِ الوَشيكِ بحريتى ، برغْم ثِقَلِ هذه القيود — حتى فَكُّوا سَلاسِلى وأغْلالى وأصبحتُ منذ تلك الساعة حُرًّا طَليقًا .

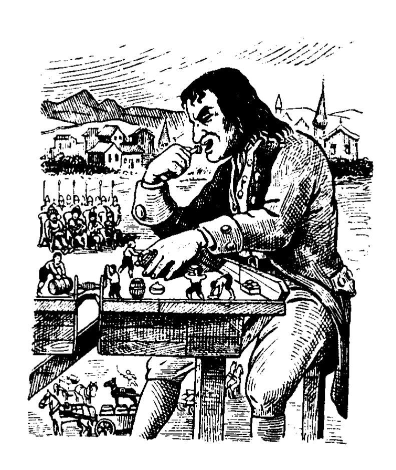
وقد جاء الإمبراطور نفسُه ، وتلطَّف بى ، وهنَّأنى بحريتى . فركعت أمامه ضارِعًا شاكِرًا ، فرجا منى — متلطفًا — أن أقِفَ ، فأذْعَنْتُ



وشكرتُ له عطفَه الذى غمرنى به .

ولعل أعجبَ ما أَدهشنى من تلك الشروط — التى وضعوها فى ذٰلك الدُّسْتورِ الذى أَمْضَيْتُه — أَنهم أَمروا لى بطعام يكفى لتغذية أَربعة وسبعين وثمانمائةٍ وأَلفِ فردٍ منهم .

وقد سألتُ صديقاً من خُلَصائى الذين اصْطفَيْتُهم من هٰؤلاء الأقزام : كيف عرَفوا أَن هٰذا القدر بعينه من الطعام يَسُدُّ حاجتى من الغِذاء ؟



فقال لى: «إن عُلَماءَ الرِّياضَةِ قد قاسُوا قامَتى إلى قاماتِهم، وحَسَبوا ضَخامَتَها، فوجدوا أَن نِسْبَةَ حجمى إلى أَحْجامهم كَنِسْبَةِ أَلفٍ وثمانمائة وسبعين وأَربعةٍ إلى واحدٍ؛ فقدَّروا أَن الغذاء الذى يكفى هٰذا العددَ من الناس يكفينى وَحدى!»

° ° °

ومن هٰذا يتبين القارئُ بَراعَةَ هؤلاء الأقزام، وسَعَةَ علمهم، وحُسْنَ تصرُّفِهم، ودِقَّةَ حسابهم وتقديرهم.

١ — عاصمةُ « ليليبوت »

كان أولَ ما طمَحَتْ نفسى إلى رؤيته — بعد أن ظفِرت بحريتى — هو أن أرى « ميلوند » قَصَبَةَ إمبراطورية «ليليبوت» . وما كاشَفْتُ الإمبراطورَ بهذه الرغبة حتى أجابنى إليها — بلا تردُّد — بعد أن أوْصانى باليقَظَة والانتباه فى أثْناء سَيْرِى فى تلك العاصمة ، حتى لا أطَأَ بقدَمى فردًا من أفراد شعبه ، أو مسكنًا من مساكنهم الصغيرة ؛ فوعدْتُه بتحقيق رغبته ، وتنفيذ أوامره ، وَفْقَ ما يُريد . فأمر جلالته أن يُذاعَ فى مدينته نبأُ زيارتى ، حتى يَلْزَمَ أَهْلُوها بُيوتَهم .

وكان ارتفاعُ السُّورِ المُحيط بالمدينة قدمين ونصفَ قدم ، وسَمْكُهُ إحدى عشْرةَ إصبَعًا ؛ فكان من اليسير على أىِّ عربة من عرباتها أن تسير فوق هذا السور المحيط بالمدينة ، من غير أن تتعرض للخطر ، وقد شيّدوا على هذا السور الضَّخم عدة بُروج متينة البناء ، بين كل بُرْجَين منها عَشْرُ أقدام .

٢ — فى شَوارِع المدينةِ

وما وَصَلْتُ إلى الباب الغربىِّ حتى مررت من فوْقه ، ثم ظَلِلْتُ أَجولُ فى الشّارعين الكبيرين ، وأَنا شديد الحذر والانتباه حتى لا أطَأ بقدمَىَّ أَحدًا من الأقزام الذين دَفَعهم الفُضول إلى الخروجِ من مساكنهم ، ومُخالفةِ أمر الإمبراطور ، بعد أَن حذَّرهم عَواقِبَ الخروج فى أثناء تَجْوالى بالمدينة .

وكنت أُنْعِمُ النظر فيما يحيط بى ، وأُقدِّر كل خُطوة أَخْطوها حتى لا يَمَسّ جسدى أو ملابسى نافِذَةً من نوافِذِ منازلهم ، فتهوِىَ — بمن عليها — إلى الأرض .

وكانت نوافِذُ المنازل غاصّةً بالناس الذين كانوا يَرْقُبون رؤيتى منذ زمن طويل بشوق شديد ، وكانت سُطوحُ البُيوت التى مررت عليها مُزْدَحِمَةً لا تكاد تجدُ فيها منفذًا من شدَّة الزحام . وقد أيقنتُ — حينئذ — أن سكّان تلك المدينة الكبيرة لا يقلون عن خَمْسِمائة ألف نَسَمَةٍ .

ورأيت من هنْدسة المدينة — فى شوارِعِها وبُيوتِها وقصورِها — ما أدهشنى ، فقد بُنِيَت المدينة على رُقْعَةٍ من الأرض على شكل مربَّع ، طولُ

كل ضِلْعٍ من أضْلاعِه خَمْسُمِائَةِ قدم . وكان يخترقُ المدينةَ — كما قلت — شارعان كبيران يتقاطعان فى منتصَفها فيقسمان المدينة أربعة أحياء مُتساويةً . وكان عَرْضُ كلٍّ شارع منها خمْس أقدام . وفى المدينة — غير ذٰلك — شوارعُ كثيرة لا تحصى ، وهى طُرُقٌ صغيرة لم أَستطع أن أمرَّ بها لضيقها ، فقد كان عَرْضُها من اثنتى عشْرةَ إصْبَعًا إلى ثمانىَ عَشْرةَ إصْبَعًا . وكانت منازلُ المدينة مؤلَّفةً من ثلاث طِباقٍ أو أربع . وفيها كثير من الدَّكاكين والأسْواقِ المنظَّمة ، وبها مَسْرَحٌ للأُبرا وآخَرُ للكوميديا .

٣ — قَصْرُ الإمبراطورِ

وكان قصر الإمبراطور يَتوسَّط المدينة ، حيث يلْتقى الشارعان الكبيران ، وهو أفخم بِناءٍ فى تلك البلاد ، يَكْتَنِفه سُورٌ ارتفاعه ثلاثٌ وعشرون إصْبَعًا ، وهو يَبعُد عِشرين قدمًا عن بناء ذٰلك القصر . وقد أَذِنَ لى جلالة الإمبراطور أن أمرّ من فوق هٰذا السُّور حتّى أَشهَد قصره من جميع نَواحِيه ، وكان الفِناء الخارجىُّ على شكل مُربَّع ضِلْعُهُ أربعون قدمًا ، وهو يحتوى فِناءيْن آخريْن . فى ثانيهما غُرَفُ جلالة الإمبراطور . وقد أعجبنى حسْنُ نظامِها وتَنْسيقُها . ولم

يكن مِنَ اليسير عليَّ أن أراها ، فقد تكبَّدتُ — فى سبيل رؤيتها — كثيرًا من العَناء ، لأن أكبرَ بابٍ فيها لا يَزيد ارتفاعه على ثمانى عشرة إصْبَعًا ، ولا يزيدُ عرضه على سَبْع أَصابِع . وكان ارتفاع جِدار الفِناء الخارجى نحو خمس أقدام . وكان من المُحال



أنْ أعْلُوَ أى جِدار من هٰذه الجُدُر حتى لا أُحَطِّمَه ، فقد كان سَمْك السُّور أربَعَ أصابِعَ على أن الإمبراطور كان شديد الرغبة فى أن أرى فخامة قصره ،

ولم يكن لى إلى تحقيق رغبته من سبيل ، إلا بعد ثلاثة أيام ظَلِلْتُ أعمل — خِلالَها — فى قَطْع بعض أشجار الحديقة الإمبراطورية ، وهى على مسافة مائة ذِراعٍ من المدينة ، وقد استطعت أن أَصنع من هٰـذه الأشجار كُرْسِيَّيْن من الخشب ، ارتفاع كلٍّ منهما ثلاث أقدام ، وقد جعلتُ كليهما متين الصُّنْع ، حتى يَتَحَمَّل ثِقْلَ جِسْمى من غير أن يتحطَّم .

٤ — أُسْرَةُ الإمبراطور

وفى اليوم الرابع صدر أمر الإمبراطور بتحذير شَعبِهِ الخروجَ من بُيُوتهم حتى لا يعرِّضوا أنفسهم للهلاك ، ثم عُدت إلى المدينة ومعىَ الكرسيَّان . وما زِلتُ سائرًا فى طريقى إلى القصر الإمبراطوريِّ ، وأنا أتخطَّى المنازل والبيوت التى فى طريقى حتى بلغتُ القصر . ولَمَّا وصلت إلى فِنائه الخارجيِّ صعِدت إلى أحد الكرسيَّيْن ، وأمسكت بالثانى فى يدى ووضعته فوق سطح القصر ، ثم قفزْت فى الفضاء — الذى بين بُرْجَيِ القصر — قفزةً شديدةً ، فنزَلت إلى الأرض دون أن أَمَسَّ القصر بِسُوء ، وكان عَرْض الفضاء الذى بين البُرْجَيْن ثمانىَ أقدام .

وقد كان من اليسير عليّ — بعد ذلك — أن أتخطّى أعلى الأبنيةِ بعد أن صنعتُ الكرسيين، فقد كنت أصعد على الكرسيِّ الأول، ثم أضعُ الثانيَ فوق القصر وأقفز بخفة — فوق الهواء — إلى الجهة الأخرى، ثم أجذب الكرسيَّ الأول بشصٍّ أعددته لهذا الغرض، وهكذا سَهَّلَ عليَّ هذا الاختراعُ أن أصل إلى الفِناء الداخلي، حيث رقَدت على جَنْبي لأرى نوافذَ



الطَّبقة الأُولى التي تركوها مفتوحة، ليتسنَّى لي رؤيةُ ما في داخلها. وقد رأيتُ أَبدع نظام وأكمل ترتيب وصل إليهما عقلٌ مفكِّر، ورأيت الإمبراطورةَ وبناتِها الأميراتِ الصغيراتِ، وهنَّ في غُرَفهنَّ — ومن حولهنَّ الخدم — وقد ابْتَسَمْنَ لي ابتسامة الإعجاب والسرور برؤيتي، وسلَّمَتْ عليَّ الإمبراطورةُ سلامَ المُرحِّبِ المُبتهج بزيارتي .

وليس فى استطاعتى أن أَصف لك كل ما رأيته فى ذلك القصر العظيم من البدائِع والطُّرَفِ ، فإن ذلك يحتاج إلى سِفْرٍ ضخْم يصف هذه البِلادَ ويشرح تاريخها — منذ نشأتها قبل عدة قرون — ويبيِّن نباتَها وحيوانَها وأخلاق أهلها وعاداتِهم ، وما إلى ذلك مما تَحْويه تلك البلادُ من الغَرائبِ والْمُدْهِشات . وقد أَقَمْتُ فيها تسعة أشهر، كانت كافية لدرس الكثير من خصائصِ هذا الشعب النادر فى ذكائه ونشاطه .



٥ — المُنازعاتُ الداخلية

وبعد خمسةَ عَشَرَ يومًا من حصولى على حريتى ، جاءنى « سكرتيرُ » وزارة الخارجية — ومعه خادمه — وطلب أن يُسِرَّ إلىّ بحديث مهم ، فأردت أن أرقُدَ

على الأرض ليكونَ في مستوَى أذني فيسهُل عليَّ سماعُ حديثه ، ولكنه آثرَ أن أحمله بيدى إبَّان هذا الحديث . وقد بدأ حديثه بتهنئتى بنَيْل حريتى ، ثم قال لى :

« إننى لأخجل يا سيدى أن أذكر لك أنى كنت من العاملين على ظفَرك بحُرِّيتك ، فلا يتسرَّبْ إلى ذهنك أننى أمْتَنُّ عليك بهذا الجُهد الضئيل الذى بذلتُه فى سبيلك ؛ على أننى أعتقد أنه لا فَضْلَ لأحد عليك ، فلولا أن الدولة فى حاجة شديدة إلى قوَّتك وجهودك ، ولولا أنهم يعلِّقون بكَ أكبر الآمال ، لما أطلقوا لك حريتك بمثل هذه السرعة ، ونحن كبيرو الثقة فى كَرَمك وإخلاصك ، وعملك على إنقاذنا من أخطارٍ ، نأمُلُ أن توفَّق — بفَضل قوَّتك وشجاعتك — إلى القضاء عليها . »

فأظهرت له أننى مستعدٌّ أَتمَّ الاستعداد لتلْبية كل ما يأمروننى به ، وأننى لا أدَّخر وُسعًا فى خدمة الدولةِ ، وتحقيق رغَباتها وآمالها . ثم سألتُ عما يُريده منى ، فقال :

« إن بلادَنا قد أَصبحت — لنشاط أهلها وذكائهم — من أجمل بلاد العالم وأنْضَرها . ولكنها لَمْ تَخْلُ — على ذلك — من مُنازَعاتٍ وانقسامات داخلية ، وأخطار خارجية ، وهاتانِ العِلَّتان هما مصدر قلقنا وانزعاجنا جميعًا .

فقد نشأ في بلادنا — منذ سبعين قَمَرًا — حِزْبان متعارضان: حزب «الترامكسان» وحزب «السلامكسان» ، ومعنى اللفظة الأولى : حزب الأعْقابِ المُرْتفعة ، ومعنى اللفظة الثانية : حزب الأعْقابِ المُنْخفضة . وكلاهما يزعُم أنه على حق . وأنا — وإن كنت أرى أن ذوى الأعقاب المُرْتفعة هم حزب الكثرة — أعتقد أن المصلحة العامة تقضى باحترام ما قرره إمبراطورنا ، تلافيًا للخلاف ، ومحافَظةً على وَحْدَةِ البلاد : فقد قرر الإمبراطور حين وَلِيَ الأمر ألَّا يستعمل أحدًا — في أى عمل من أعمال حكومته — إلَّا إذا كان من ذَوِى الأعقاب المُنخفضة ، ولعلك لاحظت أن عَقِبَيْ جَلالةِ الإمبراطور هُما أكثر الأعقاب انخفاضًا .

وقد بلَغت المُنافسة بين رجال الحزبين حَدَّ المخاصمة ، فأصبح كل فريق يَمْقُتُ الآخر ، ولا يَرْضى لنفسه أن يُحَيِّيَهُ أو يُكَلِّمَهُ .

ونحن نعلم أن حزب «الترامكسان» — أى حزب الأعقاب المُرْتفعة — يَكْثُرونَنا عددًا ، ولكننا أقوى منهم ، لأن سلطان الحكم فى أيدينا .

ومما يُؤْسِفنا أشد الأسف أننا نخشى أن يكون صاحب السُّمُوِّ الإمبراطورى — ولىُّ العهد — ممن يميلون إلى حزب الأعقاب المرتفعة ؛ ويُرَجِّحُ لنا ذلك

الْمَيْلَ أَن إحدى عَقِبَيْهِ أَكثر ارتفاعًا من الأخرى ، فهو لذٰلك يَعْرَجُ فى مِشْيَتِهِ قليلًا .

• • •

وقد زاد على هٰذا الانقسام الداخلى أَنَّنا مُهَدَّدون بِحَرْبٍ خارجية من سكان جزيرة « بليفُسكو » ، التى تَلِي إمبراطوريتنا فى القوة ، فهى — إذا استثنيت إمبراطوريتنا — أَقوى إمبراطورية فى العالم .

وقد كنا نسمع أَن فى العالم إمبراطورياتٍ أُخرى وممالكَ ودُوَلًا لم نرها ، وأَنهم أُناسِيُّ مِثلُنا ، ولٰكنهم أَضخم وأَكْبَر أَجسامًا منك ، وهو كلام أَقرب إلى الخُرافَةِ منه إلى الحقيقة ، وقد شكَّ فى صِحَّته فلاسِفَتُنا وخَطَّأُوهُ .

ولقد حاروا فى تَعْليلِ ضخامةِ جسمك ، وتضارَبَتْ أَقوالهم فى ذٰلك ، ولم يُصَدِّقوا أَنك من سكان هٰذا العالم ، فهم يعتقدون أَنك هابط علينا من القمر ، أَو نازل إلينا من أَحَدِ النجوم ، فإِن مِائَةَ رجل — فى مثل حَجْمِك — يأكلون — فى زمن يسيرٍ — كلَّ ما فى هٰذه الإِمبراطورية العظيمة من فاكهة وحَبٍّ وماشِيَة .

على أن مُؤَرِّخينا لم يذكروا فى أسفارهم — منذ سِتَّةِ آلافِ قمر — أن فى

الدنيا كُلِّها بلادًا غير إمبراطورية « ليليبوت » وإمبراطورية « بليفُسْكُو » المُجاورَةِ لنا . وقد دارت رَحَى الحربِ بين هاتين الإمبراطوريتين أكثرَ من ثلاثين قمَرًا ، وكانت حربًا عنيفة طاحِنَةً .

٦ – مُشْكِلَةُ البَيْضَةِ

وكان سببُ هٰذه الحرب خِلافًا جَوْهَرِيًّا نَشِبَ بين الإمبراطوريتين ، وهو ينحصِرُ فى الطريقة التى يجب أن يَتَّبِعَها الشعب فى كسر بَيْضَةِ الدَّجاج ؛ فَقد اتَّفق الناس جميعًا — منذ أقدم عصور التاريخ — على أن يَكْسِروا البيضةَ — إذا أرادوا أكلَها — من طَرَفِها الْمُسْتَعْرِض ، ولٰكن جَدَّ صاحب الجلالة إمبراطورِنا الحالى ، وقع له حادث فى طفولته غَيَّر هٰذا النِّظام من الضِّدِّ إلى الضد ، فقد قُطِعَتْ إحدى أصابعِه ، وهو يَكْسِر البيضة .

وثَمَّةَ أصدر والدُهُ أمره إلى جميع رعاياه أن يكسِروا البيض من الطرَف المُسْتَدِقِّ ، ووضعَ أقْصَى عُقوبة لمن يخالِفُ هٰذا الأمر ، فتذمَّرَ الشعب وغضِب ، وثار ثَوْراتٍ عنيفةً على القانون الجديد . وقد ذكر لنا مُؤَرِّخو ذٰلك

العهدِ أن الشعب قد ثار لذلك ستّ ثورات ، انتهت بقتل جدّ الإمبراطور ، وخلع والد الإمبراطور عن العرش .

* * *

وقد كان لأباطرة « بليفُسكو » أكبرُ يدٍ في إثارة الفِتَن الداخلية ، وكانوا يفسَحُون بلادهم لزُعَماء تلك الثورات الهاربين ، ويَحفِزُونهم إلى إذْكاء نارِ الفِتْنَةِ إذا خَبَتْ . وقد ذكر لنا المُؤَرِّخون أن كثيرًا من الناس قد آثروا الموت على أن يخضعوا لهذا القانون الجديد ، الذى يَحْتِمُ كسر البيضة من طرَفها المُسْتَدِقّ . وقد هلك في هذه الفتن أكثرُ من خمسةَ عشرَ ألف ثائر . وألّف الكُتّاب والباحثون — في هذا الموضوع الخطير — مئات من الكتب والأسفار الضخْمة . وأرسل إلينا أباطرة « بليفسكو » سفراءهم يتّهموننا بأننا قد اقترفنا أكبر جريمة عرفها التاريخ . وانتهكنا الأُصُولَ السياسية . وأحدثنا حَدَثًا كبيرًا في شَريعَةِ نَبيِّنا العظيم « دُسْترج » ، وخالفنا نَصّ كتابه المُقَدَّسِ . على أن رجال الدين عندنا لا يَروْن في ذلك القانون إلّا تطبيقًا طبيعيًّا لِنَصِّ الآية التي جاءت في كتاب هذا النبيّ ،

وهى : « على كل مؤمن أن يكسر البيض من الطَّرَف الذى يراه أكثر ملاءمةً له . »

والرأى عندى أن يُترك لكل واحد أن يقرر ما يراه صالحًا له، أو أن يَتْرُك الناسُ تقرير ذلك الحق إلى الإمبراطور . ولكن كبار الباحثين الذين نُفُوا من هذه البلاد يَرَوْن رأى إمبراطور « بليفسكو » ، وقد لَقِيَتْ آراؤُهم فى بلادنا كثيرًا من المُساعدةِ والعطفِ والتأييدِ ، ودار — بسبب ذلك — تلك الحربُ العنيفةُ الطاحنةُ بين الإمبراطوريَّتَيْن ستَّةً وثلاثينَ شهرًا ، وكانت سِجالًا بيننا وبينهم . وقد خَسِرْنا فيها أربعين سفينةً كبيرةً من من أُسْطُولنا ، وكثيرًا من السُّفُنِ الصغيرة ، كما خسرنا ثلاثين ألفًا من أشجع المَلّاحين والجنودِ المُدَرَّبين . ولم تكن خَسارَةُ العدوِّ بأقلَّ من خَسارتنا . وقد علمنا أنهم يُعِدُّون الآن أُسطولًا هائلًا لغَزْوِ شَواطئنا .

° ° °

وقد قلت لك : إنَّ صاحِبَ الجلالة إمبراطورنا العظيم قد وضع ثِقَتَه كلَّها فيك ، وأيقن أن النصر سيكون حليفه — من غير شك — إذا ضَمِن تأييدَك لفكرته ، وقد أرسلنى إليك لأتعرَّف رأيك فى ذلك، وأُخْبِرَه به . »

فقلت له :

« أَرجو أَن ترفع إلى مولایَ الإمبراطورِ أَننی جندیٌّ من جنوده ، وأَننی مستعدٌّ لِمُحاربة أعدائه وَبذْلِ نفسی — دِفاعًا عن شخصه الْمُقَدَّسِ ، وعن إمبراطوریته العظیمة — ولست أُحْجِمُ عن إراقَةِ آخرِ قَطْرَةٍ من دَمِی فی سبیل نُصْرَتِه . »

ففرِحَ « السِّكرتيرُ » بجوابی ، وودَّعنی شاكرًا مسرورًا .

١ — أُسْطُولُ الأَعْداء

تَقَعُ إمبراطورية « بليفُسكو » في الشمال الشرقيّ من إمبراطورية « ليليبوت » ، ولا يفصلهما إلا قَناةٌ عَرضها نحوُ ألف وثمانمائة مترٍ .

ولم أكن قد رأيت هذه القناة من قبلُ ، فلمّا أرشدوني إلى موقعها ، تحاشَيْت جُهدي أن أَظْهرَ في تلك الناحية أو أقترب منها ، خَشْيَةَ أن يراني أحد من جيشِ العدوّ ، وقد عزمت على تنفيذ خُطة هجومي سرًّا .

وقد أحكَمْتُ خُطَّةَ الغَزْوِ إحكامًا ، وأسْرَرْتُ تفاصيلها إلى الإمبراطور — بعد أن اطَّلَعْتُ على التّقارير الحربية السِّرِّيَّة التي كتبها طَلائِعُ الجيش وعُيونُه — فابتهج الإمبراطور بخُطَّتِيَ الرَّشيدة ، ودعا الله أن يوفِّقني إلى النجاح في تحقيقها ، حتى يَتِم لهم النصرُ الوشيكُ .

وكنت قد علمت من التقارير الحربيةَ أن أُسطول الأعداء قد تمّ إعداده ، وأصبح على أُهْبَةِ الحرب والغزو . وأنه يترقَّب أول فرصة سانحة ليغزوَ بها

هذه البلاد . ومتى اعتدل الهواء تحرَّك هذا الأُسطول الكبيرُ لِمُهاجمة الإمبراطورية ، وانتهاك جيشها ، وتدمير قِلاعها وحُصونها .

وقد علمت — من الملَّاحين الخُبَراء — أن مُتوسِّطَ عُمْقِ تلك القناة هو سِتُّ أَقْدام .

٢ — وَسائِلُ الفَوْزِ

فَانْسَلَلْتُ خُفْيَةً إلى الشاطئ الشمالى الشرقى تُجاهَ « بليفسكو » ، وقد عزمت على الاستيلاء على أُسطول الأعداء ، ثم انْطَرَحْتُ خَلْفَ تَلٍّ ، وأخرجت من جيبى مِنظارى ، فتبيّنت أُسطول العدو بجَلاء ووضوح ، ورأيته مُؤَلَّفًا من خمسين سفينة حربية ، وعددٍ لا يُحْصَى من سفن النقل .

فرجَعتُ أدراجى ، وأمرت بِصُنْع عدد كبير من الحبال المَتينة بقدر ما تَيسَّر لهم صُنْعه ، كما أمرت بعمل شصوص من الحديد مثبَّتة فى آخر هٰذه الحبال ، ثم جعلت كل ثلاثة من الحبال معًا ، لتكون أكثر متانةً ، وضَمَمْت كل ثلاثة شُصُوص معًا لتكون شِصًّا واحدًا قويًّا .

وما انْتَهَوْا من ذٰلك ، حتى عُدت إلى الشاطئ الشمالىّ الشرقى ،

ونزعتُ حذائى وجوربى وثيابىَ الخارجية كلها ، وظللت أخوض الماء – بأشد سرعة أستطيعها – حتى وصلت إلى الغمْر ، فسبحت نحو ثلاثين مترًا ، ثم استقرت قدمى على القاع فسِرْت ، ولم تمرَّ بى نصْفُ ساعةٍ حتى وصلت إلى أسطولهم .

وما كان أشدَّ جزعَ الأعداء ورُعْبهم حين رأَوْنى أمامهم ، فخُيِّل إليهم أن عِفْرِيتًا من الْجِنِّ قد جاءهم ليفتك بهم ، واشتد رُعْبُهم من رؤيتى . فقفزوا جميعًا من سفُنهم كالضَّفادِع ولاذوا بالفِرار ، ولا أحسبهم يَقِلُّون عن ثلاثينَ ألفَ جُنديٍّ .

٣ – مَعْرَكةٌ حامِيَةٌ

أمّا أنا فلم أُضِعْ لحظةً واحدةً سُدًى ، فألقيت الشُّصوصَ على سفن العدو . وما فعلتُ حتى قَذَفونى بِسِهامٍ كالمطر – فى وجهى ويدى – وكان عدد تلك السهام الدقيقة يقدَّرُ بالأُلوف ، فاشتد أَلمِى لِوَقْعِها ، وارتبكْت أشد الارتباك ، وكان أخوَف ما أخافه أن تُصيب السِّهام عينىَّ فتفقأهما . ولكننى كنت مُقدِّرًا وُقوعى فى مثل هٰذا المأزق من قبلُ ، فأعددت له العُدة حتى

لا أُفاجأ به ، وثمة أخرجت نظارتى من جيبى الصغير ووضعتها على عينىّ ، وألصقتها بأنفى إلصاقًا — حتى لا ينفذ إلى عينىّ شىء من سهامهم - فأصبحت تلك النظارة كالدّرع الواقية لعينى . وما زلت أُواصل عملى بجد واجتهاد — والسهام تُمطرنى من كل ناحية — حتى وضعت الشصوص كلّها فى سفن الأعداء . وما انتهيتُ من ذلك حتى شددْتُها بكل قوتى ، فلم تتزحزح قيدَ شِبْرٍ عن مكانها ، فعلمت أن سفُنَهم مُثَبّتَةٌ بالعَقاقِيف ، فقطعت — بمُدْيتى — كل الحِبال المشدودة إليها فى وقت وَجيزٍ .

٤ — انْتِصارُ « جلفر »

وما انتهيتُ من ذلك حتى سَهُلَ علىّ أن أَجُرَّ خمسين سفينَةً من أكبر السفن ، دون أن ألقَى فى ذلك أَىَّ مَشَقَّة .

أما أهل « بليفسكو » فقد استولى عليهم الذُّهول ، وتملكت نفوسَهم الحَيْرةُ ، ولم يعرفوا من أين جئت ، وإلى أين أَقصِد ، ولماذا قطعت حبال أسطولهم . وأىُّ فائدة تعود علىَّ من ذلك ؟

وقد دار بأخْلادِهم — أولَ الأمر — أننى أعْبَثُ ، وأننى أَقطع حبال السفن

ثم أتركها للموج لِتَرْتَطِمَ وتَصْطَدِمَ ، ولٰكنّ ظُنونهم قد خابَتْ ، وأحلامَهم قد طاشَتْ — حين رأَوْنى أَجُرُّ الأسطول كله مرة واحدة — فاستولى عليهم اليأس والجزع . وظلوا يَصيحون ، وهم فى حَيْرة من أمرهم .



وما أَصْبَحْتُ بمأمَنٍ من كَيْدِهم ، بعد أن وصلت إلى مسافة أبعدَ منْ مَرْمَى سِهامهم ، حتى وقفت قليلًا ، ونزعت ما أَصاب وجهى ويدىَّ من سهامهم ، ثم استأنفت سيرى إلى ميناء « ليليبوت » ، فرأيت الإمبراطور ورجالَ حاشِيته يترقبون عودتى ، على شاطئ البحر بفارغ الصبر .

ثم رأَوُا الأُسطول يقترب منهم — وأَنا غائص فى الماء إلى عُنُقى — فلم يتبيَّنونى — أولَ الأمر — وحسِبوا أن أُسطول العدوِّ قد جاءهم ليغزوَ أرضهم ، فاشتد جزعهم ، وقد حسِبوا أننى أَصبحت فى عِداد الهالكين ، وظنوا أن العدوَّ قد تغلب علىَّ بكثرة عَدَدِه وعُدَدِه ، فلما ظهرتُ أَمامهم تبدَّدتْ مَخاوفُهم ،

وتهلّلت وُجوهُهم بِشْرًا وسرورًا ، وصاحوا جميعًا هاتفين من شدة الفرح بهٰذا الفوز المبين :

« لِيَحْيَ إمبراطور « ليليبوت » ذو القوة والجبروت ! »

٥ – مَطامِعُ الإمبراطورِ

ثم جاءنى الإمبراطور – وعلى أَساريره أَماراتُ الغِبْطَةِ والسرور – وأَثْنَى علىَّ أَطيب الثناء ، وشكر لى صنيعى أَجزل الشكر ، وأَطلق علىَّ لقب « نَصيرِ الدَّولة » ، ومَنَحنى – إلى ذلك – لقب « مُرداك » ، وهو أَكبر لقب من أَلقاب الشرف ، يمنحه الإمبراطور مَنْ أَسْدَى إلى الدولة أَكبر صنيع .

ولٰكنَّ الإمبراطور لم يكْتفِ بهذا النَّصر المُبين ، وطمَحَتْ نفسه إلى التّنْكيل بأعدائه ، والانتقام منهم أَشْنع انتقام ، فطلب إلىَّ أَن أُضيف – إلى هذا الصنيع – صنيعًا آخر ، فَأَجيئَهُ ببقية السفن التى يملكها الأعداءُ . وقد أَعْماه الْجَشَعُ وأَنساه الطمع كل شيء ، فأَصبح – بعد إِدْراكِ هذا الفوز الذى لم يُكَبِّدْه أَىَّ عَناء ، ولم يكن ليحلُم به من قبل – لا يفكر فى شيء إلا أن

يُذِلَّ أَعداءه إذلالًا ، فيستولى على « بليفُسكو » ، ويستَعْبِد أَهلها ، ويُلحقها بإمبراطوريته العظيمة ، ويستعمل عليها واليًا من قِبَله ، ويُنَكِّل بزُعماء الثورة الذين لجئُوا إلى تلك البلاد ، ويُصدر قانونًا عامًّا يُحَتِّمُ على جميع هذه الشعوب أَن يكسِروا البيْض من طرَفِه الْمُسْتَدِقِّ ، وأَن يكون القتل والصَّلْبُ جَزاء من يخالف هذا القانون الصَّارِمَ .

وما إن كاشَفَنى بأطْماعه تلك ، حتى دَهِشْتُ من قسوته وعُنفه ، وشَهْوَتِه الجامِحَة ، ورغبته الْمُلِحَّة فى الانتقام . ورأَيت أَن أَسْلُكَ كل وسيلة لأُحوِّله عن رأيه الخاطئ ، فأَكثرت له من الأَمثلة والْحُجَج على سُوء عَواقِب البَغْى ، وأظهرت له خَطَرَ سياسة العُنف ، ومَزايا العدل والعفو عند المقدرة ، فلم يَثْنِ ذلك من عَزْمِه ، وأَبَى إلَّا تحقيقَ أَطْماعه ، وإرضاء جَشعه .

وأَبَى علىَّ ضميرى وإنصافى أن أكون عَوْنًا على الظلم ، وأن يتَّخذنى الإمبراطور وسيلة إلى القضاء على حُرِّيَّةِ شعب نبيل شجاع .

ولَّما عقد الإمبراطور مجلس الشُّورى ، كاشفته برأيى ، وعارضته فى سياسته ، فامتعض من مخالفتى رأيه ، وتألم لذلك أشد الألم ، ولكنه أسرَّ ذلك فى نفسه ، ولم يَغْفِرْ لى هذه الُمخالَفة الجريئة ، ونَسِىَ ما أَسْدَيْتُه إليه من صَنِيع .

على أنه كَظَمَ غَيْظَه ، وتكلَّف الوُدَّ .

ورأى خُصومى وأعدائى — فى معارضة الإمبراطور ومكاشَفَتِه برأيى — وسيلة للكيد لى ، والانتقام منى ، وإيغارِ صدرِه علىَّ .

٦ – مُفاوَضاتُ الصُّلْحِ

وبعد ثلاثة أسابيعَ من ذلك الانتصار الباهِرِ ، حضر وَفْدٌ سياسىٌّ من « بليفُسكو » ، ومعه مُعاهَدة على الصلح ، وقد نزلوا عن مطالبهم ، وجامَلوا الإمبراطور بكل وسيلة . وكان ذلك الوَفْدُ مؤلفًا من ستة رجال — من أعْيانِ « بليفُسكو » وسَراتِها — يتبعهم خَمْسُمائة جندى ، وفى هذا وحده دليلٌ على خَطَرِ ما جاءوا لأجله .

وما أبْرَمُوا المُعاهدة ، حتى عرَفوا — من مصدر خَفِىٍّ لا أعلمُه — كلَّ ما دار بينى وبين الإمبراطور من مُعارَضَةٍ شَريفة لِوَقْفِ أطْماعه وجَشَعِه ، فجاءوا لزيارتى باحتفال عظيم وشكروا لى مُروءَتى ، وأثنَوْا على شجاعتى وكَرَمى ، ودعَوْنى لزيارة مَوْلاهم إمبراطور « بليفُسكو » الذى

ذاعتْ مَناقِبُه ومَزاياه الباهرة فى كل أنحاء العالم ، فوعدْتُهم بزيارة جلالته قبل أن أعودَ إلى بلادى .

وكان سُفَراءُ «بليفُسكو» يتحدثون إلىَّ بلغتهم ، فيترجمها لى تَرجُمانٌ منهم بلغة أهل «ليليبوت» ، وقد كان بين اللُّغتين اختلافٌ كبيرٌ ، وكان كل من الشّعبين يفخَرُ بلُغَتهِ ويَحْتَقِرُ اللغة الأخرى .

٧ — جَفاءُ الإمبراطورِ

وبعد أيامٍ قليلةٍ التمسْتُ من الإمبراطور أن يأذَنَ لى فى زيارة إمبراطور « بليفُسكو » العظيم ، فأجابنى إلى ذلك فى جَفاءٍ وامْتِعاض ، وقد بدت على أساريره أمارات الغيظ والحَنَقِ .

وكأنما نسىَ الإمبراطور أنه مَدينٌ لى — وحْدى — بهذا الفوز الباهِر ، فتملَّكه الزَّهْوُ ، وراح يتحكَّم فى سُفراء « بليفُسكو » ، ويأمرهم أن يقدموا إليه أوراق اعتمادهم ، وألَّا يتحدثوا إليه — فى خُطَبهم — بغير لغة بلاده . ولم يكن ذلك ليُعْجزهم ، فقد كان لتبادل التجارة بين الإمبراطوريَّتين فضلٌ فى إتْقان خاصَّتِهما هاتين اللغَتَيْن . وقد كان أهل « ليليبوت » يُرسلون أبناء سَراتِهم إلى « بليفُسكو » ليتزوَّدوا من العلم وفُنون الحرب والسِّباحة وما إلى ذلك . وقد سهَّل هذا الاتِّصال كله إجابة طلب الإمبراطور ، وإن كان فى قَبولِه مَسٌّ لكرامتهم القومية .

٨ — قصرُ الإمبراطورِ يحترقُ

وبعد أيامٍ قلائلَ أُتيحتْ لى فرصةٌ أُخرى لإسداء صَنِيعٍ جديد إلى إمبراطور « ليليبوت » ، فقد استيقظت — فى منتصَف ليلة مُقْمِرَةٍ — على صيحات جمهرة الشعب الذى جاء يستصرِخنى ، ويطلب النجدة والغَوْث من كارثة أليمة حلَّت بقصر الإمبراطور . وما إن أَفَقْتُ من نومى حتى جاء إلَّى جماعة من حاشية الإمبراطور — بعد أن شَقُّوا طريقهم بين صفوف الجُمهور

المُتراصّة – وتوسلوا اليَّ أن أُسرع الخُطا لأُخْمِدَ النار التى شبّت فى غرفة الإمبراطورة .

وكان سبب هذا الحريق أن إحدى وصيفاتِ الإمبراطورة كانت تقرأ قصيدة أحد شعراء « بليفُسكو » وهى مُضْطَجِعَة على فِراشها ، فبَدَرت منها حركة – دون قصد – فانقلب المِصباح على الأرض واشتعلت النار ، فصرخت الوصيفة صُراخًا مزعجًا أيقظ كل من فى القصر ، وأسرع جنود الإمبراطور وجمهرةُ الشعب ليُطفئوا النار ، فذهبت جهودهم كلُّها سدًى .

وما إن سمعتُ من الحاشية نبأ هذا الحريق ، حتى قمت – من فَوْرِى – مُسرعًا ، فوصلت إلى القصر الإمبراطورىّ ، وكان البَدْرُ مُؤْتَلِقًا فى هذه الليلة – لحسن الحظ – فأبصرت طريقى واضحةً جَلِيَّة ، ولم تَطَأْ قَدَماىَ أحدًا . وما وَصلتُ إلى القصر حتى رأيت رجال المطافئ قد رفعوا سلالمهم على جُدْرانه ، ولكن الماء كان – لسوء حظهم – على مسافة بعيدة من القصر .

ورأيت دِلاءهم فى مثل حجم أُنْمُلَتى تقريبًا ، ورأيت الحريق يشتد ويَعْظُمُ بسرعة ، وعلمت أن النار ستلتهم هذا القصر البديع الفخم بعد وقت قصير ، فلم

أَيْئَسُ من إخْمادِ النار الْمُسْتَعِرَة ؛ وعنَّتْ لى فكرةٌ سَديدَةٌ . فأسرعت إلى مسكنى ، وحملت طَسْتًا كبيرًا كنت أستحِمُّ فيه ، وكان مملوءًا بالماء —لحسن الحظ — فألقيت ما فيه من الماء على ذٰلك اللَّهَبِ الْمُسْتَعِرِ ، فخَمَدت النَّارُ فى الحال .

° ° °

ولم أكنْ أعرِف — حينئذ — هل يرضَى الإمبراطور عن هٰذا العمل أو يستنكرُهُ منى ؟ فقد كنت أعْلَمُ أن قانون الإمبراطورية ينُصُّ على أن كل من يجرُؤ على الدُّنُوِّ من القصر الإمبراطورى — من غير إذْنٍ — أو يُلْقِى عليه شيئًا قَذِرًا ، فجزاؤه القتل .

وما كنت لأجهلَ أننى ألقيت على القصر الإمبراطورى ماءً قذرًا ، وأننى أستوجب — لذٰلك — عُقوبَةَ الصَّلْبِ أو القتـل ، ولـكننى اضطُررت إلى هٰذا العمل اضطرارًا ، ولم يكن لى مَنْدُوحَةٌ عنه . فقد آثرت أن أَخْرِقَ القانون — عامِدًا — لأُنقذَ قصر الإمبراطور : وبعضُ الشَّرِّ أهْوَنُ من بعضٍ !

° ° °

وإنى لأَتوقَّعُ العقابَ أو العفو — وأنا حائِرٌ بين فَدَاحة الْجُرْم ونُبل الْمَقْصِدِ الذى دفعنى إلى اقْتِرافِهِ — إذ علمت أن جلالة الإمبراطور قد أمر قاضىَ القُضاةِ أن يرسِل إلىَّ بِكِتابِ العَفْوعن ذلك الجُرْمِ الذى ارتكبته، يَدْفَعُنى قَصْدٌ حَسَنٌ.

١ — سكان الإمبراطورية

ولا شكَّ أن القارئ قد تاقَتْ نفسُه إلى تعرُّف صِفات هٰؤلاء السكان وآرائهم ومُعْتَقَداتهم . ولما كان ذلك يحتاج إلى سِفْرٍ بِعَيْنِه ، فإني أجتزئ — في هٰذا الفصل — بذِكْرِ أهم ما يُحِبُّ القارئ أن يعرفه من شأن سكان هٰذه الإمبراطورية :



أما مُتوسِّط ارتفاعِ قاماتهم ، فلا يكاد يزيد على سِتِّ أصابِعَ ، وقد كانت نباتاتُهم وأشجارهم وحيوانهم مُناسِبةً ضآلةَ أجسامهم ، وصِغَرَ حُجومهم ، فلم يكن يزيد ارتفاعُ الجيادِ والعجول على أربعِ أصابع أو خَمْسٍ ، وكان متوسطُ

ارتفاع الخِرْفان إصبعًا ونصف إصبع ، وكان إوَزُّهم يكاد يشبه الشُّحْرورَ . أما حشرات هذه البلاد . فقد كان من الْمُحال عليَّ أن أراها لدقتها . على أن أبصار هؤلاء الأقزام كانت تتبيَّنُها بسهولة تامة ، فقد وهبهم الله — سبحانَهُ — بَصَرًا حَديدًا يُمَكِّنهم من رؤية أدقِّ الأشياء التى لا نراها إلا بالْمِجْهَرِ . وقد رأيت — ذات مرة — طاهِيًا ينتِف ريش قُبَّرَةٍ لا يزيد حجمها على حجم الذبابة ، وأذكر أنني رأَيت فتاة تُدخل خيطًا فى سَمِّ الْخِياطِ (ثَقْبِ الْإِبْرَةِ) فلم أستطع أن أرى الخيط وَلا الإبرة لدقتهما ، بلْهَ سَمَّ الإبرة .

٢ — بعضُ عاداتِهم

وكانوا يكتُبون ويقرءون فى سُهولة ، ولكن طريقتهم فى الكتابة غاية فى الغرابة . فهم لا يكتبون من اليسار إلى اليمين كما يكتب أهل أوْرُبا وأمريكا ، ولا من اليمين إلى اليَسارِ كما يكتب العرب ، ولا من أعْلَى إلى أسفلَ كما يكتب الصِّينيون ، ولا من أسفل إلى أعلَى كما يكتب بعضُ الأمم . ولكنهم يَسْلُكون فى كتابتهم مَسْلَكًا يخالف أساليب الناس جميعًا ، فهم يكتبون سطورًا مُنحنية من إحدى زوايا الورق إلى الزَّاوية الأخرى .

أما أسلوبهم فى دَفْنِ مَوْتاهُم . فهو أسلوب عجيب حقًّا ، فإنهم يضعون رُءوس موتاهم — فى قبورهم — إلى أسفلَ ، وأَرْجُلَهم إلى أعلى ، لأنهم يعتقدون أَن يوم البَعْثِ سيجىء بعد أحدَ عشرَ ألفَ قمرٍ ، وحينئذ يبعث الله من فى القبور ، ويقلب الأرض فيجعل سافِلَها عالِيَها . ولَمَّا كانوا يظنون أن الأرضَ منبسطةٌ ليست كُرِيَّة ، رأَوْا أن يدفنوا موتاهم بهذه الطريقة ، حتى إذا جاء يومُ البَعْثِ والنُّشُورِ . وانقلبت الأرض — حينئذ — فأصبح عاليها سافِلَها ، بُعِثَ مَوْتاهُم واقفين على أَقدامهم .

وكان العامَّةُ يؤمنون بهذه الْخُرافَةِ إيمانًا وثيقًا ، ويرَوْنها من العقائد الدينية التى يجب على كل مُؤْمِنٍ أن يَدِينَ بها : وَيُكَفِّرون كل من يحاول أن يقنعهم بفساد هذه العقيدة . أو يُظهرَ لهم أَن دينهم براءٌ منها .

وكان عُلماؤهم وخاصّتهم يعلمون فساد هذا الرأى وخطَله ، ولكنهم لا يجرُءون على إذاعَةِ آرائهم هذه ، حتى لا يؤذيَهم الشعبُ ، ولا يثور عليهم .

٣ — عِقابُ الخائِنِ

وأكثر قوانين هذه البلاد وعاداتهم غريب عنا ، مُخالِفٌ لعاداتنا وقوانيننا

كل المخالفة . ومن أعجب ما رأيته من قوانينهم صرامَتُهم فى معاقبة الوُشاةِ والنمَّامين ، فقد نصَّ القانون على أن كل جريمة تُقتَرَفُ ضد الدولة ، يكون جزاؤها أقصَى العقوبة : وهو القتل — لا هَوادةَ فى ذلك ولا رحمةَ — فإذا استطاع المتهم أن يبرِّئَ نفسه من تُهَمته ، قضت المحكمة بقتل من ألصق به هٰذه التُّهَمة ، وإعطاء البرىء جميع أملاكه . فإذا وَشى صُعْلوكٌ فقير بإنسان ثم ظهرت براءته . لم يكتف الإمبراطور بتبرئة البرىء ، وقتل الواشى المُسىء ، بل يمنح البرىء شيئًا من أملاكه الخاصة يُعَوِّضُ عليه ما لَحِقه من عَنَتِ السجن ، وما أصابه من ضرر التُّهَمَة . أما جريمة الغِشِّ فهى — عندهم — أشد فظاعة من جريمة السرقة ، وعقابها صارم كعقاب خيانة الدولة — سَواءً بِسَواء — فكلاهما جزاؤه القتل .

وإنما شدَّدوا النَّكيرَ على المُدَلِّسِ الغاشِّ لأنهم رأَوْا أن من اليسير على كل إنسان — إذا كان يَقِظًا حازمًا — أن يَصُونَ أمواله وأملاكه عَن أَن تمتد إليها أَيْدى اللصوص ، ولا كذلك الشأن فى المدلِّس ، فإن حيلته وأساليب مكره تخدع الطاهرَ القلبِ . وقوانين هذه البلاد تشجِّع على النزاهة والأمانة ، وتحارب فسادَ الذِّمَّةِ بكل وسيلة صارِمَةٍ ، وهم فى ذلك أَبعدُ نظرًا من كل

من عَدَاهم من الأمم التى تتهاون فى القِصاصِ ومعاقبة المجرمين .

على أَنهم لا يقتصرون على معاقبة المُسىء، بل يتخَطَّوْن ذلك إلى مُكافأة المحسن — تشجيعًا له على إحسانه ، وإغراءً لغيره بتَقليده — فإذا أَثبت إنسان أَنه أَخلص لبلاده ، ولم يخالفْ قانونَها ثلاثةً وسبعين قَمَرًا ، منحته الحكومة شيئًا من الامتياز — على حَسَبِ مكانته ودرجته وأَصله — وكافأَته بالمال، ولقبته بلقب «الرَّجُلِ الشَّرْعِيِّ» ، وهو من أَلقاب الشرف الرفيعة عندهم، وهو وَقْفٌ على من يُمْنَحُهُ فى حياته ، ولا ينتقل إلى أَبنائه بعد موته

وهم إنما يفعلون ذلك لِاعْتِقادهم أن القانونَ لا يَكْمُلُ إلَّا إذا أضاف إلى معاقبة المسىء إثابَةَ المحسن ، فكما تعاقب الحكومة كلَّ من يجرُؤ على مخالفة قانونها ، يجدُر بها — إلى ذلك — أن تُثِيبَ كل من يأخذ نفسه باتِّباع القانون بدقة وإخلاص . وهم يتمثَّلون العدالة فى تمثالٍ ذى سِتِّ أَعْيُنٍ : اثنتان من أمام ، واثنتان من خلفٍ ، وواحدة من الجانب الأيمن ، وأخرى من الجانب الأيسر — يَعْنُون بذلك تمثيل الْحِرْصِ الشديد — وفى يمين ذلك التمثال كيسٌ مملوء ذهبًا ، وفى يساره سيفٌ مُغْمَدٌ ، رَمْزًا إلى المكافأة والقِصاصِ ؛ وإنما لم يَسُلُّوا السيف من غِمده رمزًا إلى إيثار الْحُسْنَى

والعفو . وهم — إذا اختاروا مُوَظَّفِى الحكومة — يُؤْثِرون ذوى الأمانة والاستقامة والأخلاق الفاضلة على ذوى المواهب والعبقريات .

ولمَّا كانوا يعتقدون أن الحكومةَ ضرورية جدًّا للجنس البشريِّ . اعتقدوا أن الله قد سهَّلَ إدارة شئونها العامة ويسَّرَها تيسيرًا ، ولم يشأ أن يجعلها من الأمور العويصة الغامضة التى لا يُتْقِنُها إلا ذَوُو المواهبِ النادرة والعَبْقَرِيَّات الفذَّة ، بل جعلها هَيِّنَةً ميسورة يستطيع أن يؤدِّيها كل إنسانٍ فاضِلٍ يَحْرِص على النَّزاهة والاستقامة والعدل ، ويجمع — إلى هذه المزايا — قليلًا من الدُّرْبَةِ واليقَظة وحب الوطن ، والقيام بما عليه من فروض وواجبات . وهم يؤمنون إيمانًا صادِقًا بأن الْخُلُقَ الفاضل وحده هو سِرُّ النجاحِ ، وأن إنسانًا — بالغًا ما بلغ من المواهب العقلية النادرة والذكاء الخارِق والألْمَعِيَّة — لن ينفع بلاده إذا فقد حُسْنَ الخلُق ويقَظة الضمير ، بل إنهم لَيَرَوْنه أشدَّ خَطَرًا على بلاده ممن حُرِمَ هذه المواهِبَ ، لأنه أقدر على الإضْرارِ والإساءة ، ولأن وزيرًا جاهلاً يقع فى خَطَإٍ — لجهله — لن يكون ضررُه بليغَ الأثرِ ، ولكنه — إذا كان أَلْمَعِيًّا — استطاع أن يَسْتُرَ تَدْليسَه وخيانته وإجرامه ، بما أوتِىَ من حِذْقٍ ومهارة . فيُصبحَ بمأمن من العقاب .

وهم يحرصون على الدِّينِ أَشد الحِرص ويُفَقِّهون أطفالهم فيه ، لاعتقادهم أنه أصل الخير ومصدر الفضائل وجُمَّاعُ الأخلاق النبيلة ، ولا يُسندون أى عمل من الأعمال العامة لأى رجل لا يحرص على دينه ولا يَخْشَى اللهَ .

ولَمَّا كان الشعبُ يرى فى إمبراطوره أنه رسولُ القُدْرَةِ الإلٰهية إليه ، فإنه يرى أن من الْحَتْم على ذلك الرسول الإلٰهى أَلَّا يَسْتَخْدِمَ فى أعمال الحكومة أَحدًا مِمَّنْ لَا دِينَ لهم ، وإلا كان الإمبراطور حانِثًا فى عَهْدِه ، غَيْرَ أمينٍ على الوَديعَةِ التى أُؤْتُمِنَ عليها .

٤ — مُخالفةُ القانون

هذه هى الأُسُسُ الفاضلة التى بُنِيَ عليها قانونُهم الدقيق ، على أنهم — لسوء الحظ — لم يَتَّبعوا رُوحَ هذا القانون الذى كان سرَّ نجاحِ أَسْلافِهم ، بل أَدخلوا فيه كثيرًا من التَّحْوير والتعديل — مُجاراةً لأهوائهم ونَزَعاتهم الطائشة — حتى أصبحت الْمَناصب العالية لا تُنال إلا بالرَّقْصِ والقفز على الحبال كما أَسلفنا ، ونَسُوا نُصُوصَ قوانينهم الأولى ، فكان ذلك نَذِيرًا لهم بالانْحِطاط والتَّدَهْوُرِ .

وقد كان أولَ من أَدخل هذا التغيير الْمَشْئُومَ على قانون تلك البلاد ، هو والدُ الإمبراطورِ الحالىّ .

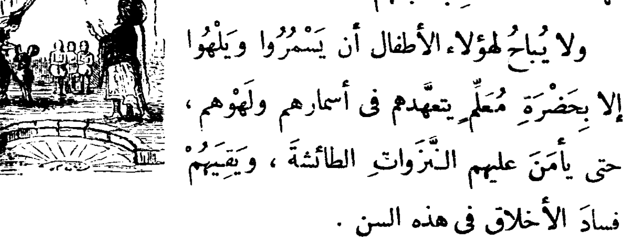
٥ — أساليبُ التربيةِ

ويرى هذا الشعب فى إنكار الجميل جريمةً كبيرة لا تُغْتَفَرُ ، ويقول :

« إن من أساء إلى من أحسن إليه لا يستحق الاحترامَ . وما أجدرَه أن يسقطَ من عدادِ الأناسيِّ . ويُسْلَكَ فى عِداد البهائم . »

ويرى هؤلاء الأقوامُ أن الوالِدِينَ جديرونَ ألّا يحملوا أعْباءَ تربيةِ أبنائهم . وحسْبُهم أنهم قد نَسَلُوا ذُرِّيَّةً جديدة تنفع بلادهم . ولذلك أنشأت حكومتهم مدارسَ دينية عامة فى كل بلد من البُلدان ، وقد حتَّمَ قانون هذه الإمبراطورية على الآباء والأمّهات — ما عدا العمال والفلاحين — أن يُرْسلوا أبناءهم وبناتهم إلى تلك المدارس ، ليتلقَّوْا ثقافتهم — متى بلغت أسْنانُهم عشرين قمرًا — وثَمّةَ يُنقلون إلى المدارس التى تُلائِم مواهبهم ، وهى مدارسُ شتّى للبَنِينَ والبنات . وفيها أساتِيذُ مُدَرَّبون قد أتقنوا فُنُون التدريس والتهذيب ، ووَقَفُوا حياتهم على خدمة النَّشْءِ وتثقيفهم . وقد جعلوا نُصْبَ أعينهم أن يَبُثُّوا فى نفوسهم مَقاصِدَ الخير والشرف ، وخِلالَ العدل والشجاعة والتواضع والرحمة ، ويَغْرِسوا فى قلوبهم — منذ طُفُولتهم — حبَّ الوطن والدِّين .

وفى كل مدرسة رجال يُعْنَوْنَ بشئون هؤلاء الأطفال ، ويُلبسونهم ثيابهم ، حتى إذا بلغت أسنانُهم أربعة أعوام ، أصبح من الْحَتْم عليهم أن يرتدوا ثيابهم بأنفسهم مهما سَمَتْ مَناصِبُ آبائهم .



ولا يُباحُ لهؤلاء الأطفال أن يَسْمُرُوا ويَلْهُوا إلا بِحَضْرَةِ مُعَلِّمٍ يتعهّدهم فى أسمارهم ولَهْوهم ، حتى يأمَنَ عليهم النَّزَواتِ الطائشةَ ، ويَقِيَهُمْ فسادَ الأخلاق فى هذه السن .

وللآباء والأمّهات أن يزوروا أبناءهم وبناتِهم — مرّتين فى كل عام — ولَيس لهم أن يلبَثوا فى زيارتهم أكثر من ساعة واحدة . ولهم أن يتكلموا مع أولادهم فى حُرِّيَّةٍ تامّة ، وليس لهم أن يدلّلوهم أو يُعْطوهم لُعَبًا أو حَلْوَى أو يُسِرُّوا إليهم بشىء لا يسمعه المعلمُ الْمُشْرِفُ على النّظام .

أما مدارس البنات، فإنك تجد فيها بناتِ الأُسَرِ الرّاقية يَنْشَأْنَ كما يَنْشأُ الْبنُونَ، ويَقفُ على العناية بشُئونهن خادماتٌ أمينات يُلْبِسْنهن ثيابهن فى حضرة إحدى المدرسات، حتى إذا أدركن الخامسة من سِنيهن وجب عليهن أن يرتدين ثيابهن بأنفسهن.

ومتى ثبَتَ على إحدى الْمُرْضِعات — أو الخادمات — أنها قصَّت على أحد الأطفال قصَّة مخيفة من تلك الخرافات التى تترك فى نفوس الأطفال أسْوأ الآثار، أنزلوا بها أشد العِقاب ، وأمروا بِجَلْدِها فى كل مَدِينَةٍ ثلاثَ جَلْدات . فإذا تمّ جَلْدُها ، سُجِنت عامًا بأكمله ، فإذا قضت مدّة سجنها نُفِيَتْ إلى بَلَدٍ ناءٍ سحيق .

وهٰكذا تُعْنَى الحكومة بثقافة البنينَ والبنات ، وتَنْشِئَتِهِمْ أحسنَ تَنْشِئَةٍ ، مع تَعْوِيدِهم النَّظافة وحُسْنَ الأدبِ .

أما الدُّروسُ التى يتلقَّوْنَهـا فهى هيِّنةٌ ميسورة، لا تكاد تتجاوز مبادئَ العلومِ وأدبَ اللغةِ والدينِ . ومِن حِكَمِهم وأمثالِهم المعروفة أن الزوجةَ جديرةٌ أن تكون لِزَوْجِها خيرَ مُعينٍ ، وأن تتعهَّدَ عقلَها بالثقافة والعلم دائمًا حتى لا يَشِيخَ عقلُها . ويرى هٰذا الشعب — رَأْيَ اليقين — أن العناية بتربية الأطفال هى أُسُّ نَجاحِ الوطن ومصدرُ خيرِ البلاد ، فإن الطفلَ الكاملَ سيكون — بعد قليل — الرجلَ الكاملَ . ويقولون : إن من الْمَيْسور أن نُؤَسِّس أُسرة فاضلة ، كما أن من الْمَيْسور أن نَبْذُرَ الْحَبَّ وأن نَتَوَلَّاهُ بالعِناية . وكما أن بعض النبات يتطلب منّا أن نَرْعاه ونَدْفَعَ عنه غائلةَ الشِّتاء وقسْوة العواصف

الصَّيفية وفتك الحشرات الْمُؤْذِيَة حتى نَجْنِيَ منه أطيب الثمار ، وكما أن البُسْتانِيَّ الماهر الذكيَّ قادرٌ على تعهُّد حديقته تعهُّدًا يجعلها تُؤْتى أطيب الثمر ، كذلك الأستاذ الصالح قادر على أن يتعهد الطفل — كما يتعهد البستانيُّ النبات — وأن يَغْرِسَ فيه أنْبَلَ الأخلاق وأكرم العادات ، وأن يُثمر تعهُّدُه إيَّاه أطيب الْجَنَى وأشْهاه .

٦ — أُسْلوبُهم فى التَّعليم

وهم يُعْنَوْنَ العناية كلها بتَخَيُّرِ المعلمين ، ويُؤْثِرونَ أن يكون المعلم صحيح العقل مُتَّزِنَ التفكير ، على أن يكون ذا مواهبَ سامِيَةٍ ونُبوغٍ عظيم. وهم يَتَوَخَّوْن — إلى ذلك — أن يكون المعلم كريم الْخُلُق ، ولوْ كان قليلَ الإطلاع والعلم .

أما مَناهِجُ التربية عندهم ، فهى مناهِجُ واضحة ، ترمى — فى تفصيلها وإجمالها — إلى تعليم الأطفال : كيف يفهمون الحياة العملية فَهْمًا صحيحًا ، وكيف يبتهجون بروائع الطبيعة الفاتنة . وهم يُحَرِّمون على الْمُدَرِّسين أن يُزْعِجُوا تلاميذَهم بمناقشات عَقِيمَةٍ فارغةٍ ، وأن يُرْهِقوا أذهانهم بأخْلاطٍ من المعارف وأشتاتٍ من العلوم لا صِلَةَ لها بالحياة . وهم يعتقدون أن الذِّهْنَ

الإنسانىّ يجب ألّا يعرف — من ألوان العلم — إلا الضرورىّ الذى ينفعه فى الحياة ويُنير له السبيل إلى النجاح . لذلك كانت علوم تلك المدارس متصلة بالحياة الخارجية أوثق اتصال ، فهم لا يَكُدُّون أذهان تلاميذهم فى تعلُّم لغةٍ قديمةٍ أبْلاها الزمن ، وقُضِىَ عليها بالموت ، ولا يُرْهِقونهم بالنَّحْوِ والصَّرْفِ وما إلى ذٰلك . ولٰكنهم يُعْنَوْن بالتَّطْبيق والأمثلة العمليَّة ، ويُعلمونهم — منذ حداثَتِهم — الحِكْمة والفلسفة ، وينتهزّون كل فرصة من الفرص لِتَحْبيبهما إليهم ، ويتَّخذون — من أوقات اللَّهو والتسلية — مناسبات لشرح أسرار الطبيعةِ بطريقة فلسفية جذَّابة . وثمَّة يخرج الطالب — بعد الانتهاء من زمن الدرس — مُزوَّدًا بكل ما تطلُبه الحياة من قُوَّةٍ وجَلَدٍ وخِبْرَة ، ومعه كل أسلحة النِّضال والكِفاح .

وعندهم أن من المُخْزِى أن يخرُج الطالب من المدرسة وهو جاهل بأسرار الحياة ، وأن يبدأ دَرْسها بعد ضَياع الفُرصة ، وأن يحاول أن يتعلم كيف يعيش بعد أن يقترب من نهايةِ أَجَلِه . وأن يصل إلى سن الرجولة وهو لا يزال طفلا فى هٰذه الحياة . . .

٧ — حُبُّ الحقيقةِ

وهم يُشجِّعون كلَّ من يعترف بِخَطئِه ، ويَمْنَحُونه أَجزل مكافأة ، كما يُثيبونَ التَّائبَ الذى يَدُلُّ على نقائصه وعُيوبه من تِلقاء نفسه ، ويَعْفون عنه ويكرِّمونه ، لاعتقادهم أَن الرجوع عن الخطأ إلى الصواب فضيلةٌ عظيمة جديرة بالتَّقدير والتشجيع .

وهم يَنْشدون فى جمهرة الشعب أن يُخْلصوا لإمبراطورهم إخلاصَ حبٍّ ووفاء وولاء ، لا إخلاصَ خوفٍ وتملُّقٍ ورِياء .

٨ — دِراسةُ التاريخِ والفلسفةِ

أما دراسة التاريخ فهى على غير ما نألَفُه فى مدارسنا ، وقلَّما يُعْنَى مُدَرِّسو التاريخ أَنفُسَهم بشرح الحوادث التاريخية وتحليل أبطالها تحليلا دقيقًا يصوِّر للنَّشء ما قاموا به من جلائل الأعمال ، وما وقعوا فيه من الْخَطأ .

وقلَّما يأبَهُون لتواريخ السنين التى وقعت فيها أهمُّ الحوادِثِ ، وذِكْرِ اليوم أو الشهر أو المكان الذى حدثتْ فيه ، فإن شيئًا من ذلك كلِّه لا يَعْنيهم ولا يَرَوْن فيه أى خطر .

وكل ما يَعنيهم من التاريخ هو أن يتعرَّفوا أسرارَ النفس الإنسانية ، وميلَ الناس إلى الظلم والقسوة ، والبعدِ عن الإنصاف ، والاعتداء على غيرهم ، بَغْيًا وجَوْرًا ، وإذكاء نيران الحروب — فى كل عصر من العصور — لِأَتْفَهِ الأسباب ، دون أن يحاسِبوا ضمائرهم على ما يقترفون من جرائمَ وآثامٍ ، وينظروا إلى نتائج أعمالهم السَّيِّئةِ التى تنتهى بالقتل والتدمير والخراب .

وليس يَعْنِى هٰؤلاء الأقْزامَ أن يحبِّبوا العلم إلى كل إنسان ، لأنهم يريدون أن يُقْبِلَ كلُّ فردٍ من أفراد الشعب على ما يُلائِمُ طبعَه ومواهبه واستعداده من الفنون والعلوم والْحِرَفِ . وكثيرًا ما يَسْخَرون ممن يَتَغالَى فى الدرس والاطلاع ، ويَرَوْن فى ذلك ضررًا بليغًا عليه . فإن العقل — فيما يعتقدون — كالجسم سَواء بسواءٍ . وكما أن الجسم يُؤْذيه الإفْراطُ فى الغِذاء فلا يَسْهُل عليه أن يَهْضِمَه ، فإن العقلَ — كذٰلك — يؤذيه الإفراط فى غذائه العلمى ، فيُصاب بالتُّخَمَةِ التى تُمْرِضُهُ وتَضُرُّهُ ، وربما أَوْدَتْ به .

وليس عندَ الإمبراطورِ — نفسِه — مكتبةٌ كبيرة حافلة بالْمُصَنَّفات العلميَّة والفنية ، وقلَّما تجد أحدًا يُعْنَى بإنشاء مكتبةٍ جامعة فى بيته ؛ فإذا عُنِى أحد الخاصة بجمع الكتب ، سَخِروا منه وسَلَكوه فى عِدادِ الْمَعْتُوهِينَ ،

وشبَّهوه بالْحِمار يحمل أسفارًا من الـكتب .

* * *

أما فلسفةُ هٰؤلاء الأقزامِ فهى غاية فى اليُسْر والسُّهولة ، لأنَّها فلسفةٌ عملية لا تقوم على المجادَلاتِ اللفظية والمناقشات الْمُلْتَوِيَةِ المتشعِّبة ، والبحوث الغامضة العميقة ، التى تُرْهِقُ الذِّهْنَ على غير طائل ، ولٰـكنها فلسفةٌ واضحة تقوم على قواعِدَ معقولةٍ وَتُوثِر التَّوَسُّطَ فى الأمور ، وتعلمهم أن الشرَفَ أَغْنُ من المال ، وأنَّ الرجل العظيم هو الرجل الذى يستطيع — بقوَّة إرادته — أن يَكْبَحَ جِماحَ أهْوائه ، وأن من يفعل ذٰلك جديرٌ أن تَسْمُوَ مكانَتُه على مكانة البطل الفاتح الذى يغلب الأعداء وينتصر عليهم فى ميادين القتال .

وعندهم أن الفضيلة هى أُسُّ النجاح والفوز ، ويَنْبوعُ السعادة والرفاهِيَةِ . وهم يترُكون للإنسان أن يتخيَّرَ بنفسه ما يُلائمه ويَتَّفِقُ مع طبيعته من الأعمال ، وله كل الحرية فى ذٰلك من غير أن يُقَيِّدَ نفسه بصناعة أبيه أو فَنِّه . وثَمَّةَ ترى ابنَ الزارِع — مثلًا — قد رفعته مُؤَهِّلاتُه ومَزاياه إلى صُفُوف الوُزَراء ، وابنَ الوزيرِ قد أصبح تاجِرًا ، لأنه لا يصلح إلَّا أن يكون تاجرًا .

وليس لهذه الشُّعوبِ مَيْلٌ إلى الطَّبيعة والرِّياضة إلا بقدرٍ معلوم ، أى بحَسَبِ ما يحتاجون إليه فى حياتهم وفنونهم المفيدة ، وقَلَّما يُعْنَوْن أنفسَهم بتَفَهُّم أجزاء العالم وأسرار الطبيعة العميقة ، فحسبُهُم أن يتمتَّعوا بمَشاهِدِها الرائعةِ دون دراسَتِها . أما العلوم النَّظَرِيَّةُ والعقليةُ فهى عندهم عَبَثٌ وخَيالاتٌ وأوْهامٌ لا طائِلَ تحتها .

٩ — آراءٌ وقواعدُ

وعندهم أن الأُسلوبَ الأدبيَّ يجب أن يجمع بين الجمال والوضُوح — سواء فى ذٰلك أُسلوب النَّظْمِ وأُسلوب النَّثْرِ — وهم يَمْقُتون التكلُّفَ والإغْرابَ فى اللغة ، ويرَوْن من فساد الذَّوق والأَنانيَّة الْمَمْقوتَةِ أن يتَشَدَّقَ الإنسانُ بألفاظٍ غير مألوفة ، ليتظاهرَ بأنه مُتَفَرِّدٌ بغَريب اللغة عن بقية مُعاصِريه .

وعندهم أن اللغة لم تُخْلَقْ إلَّا لتؤَدِّيَ الأغراضَ بأيسرِ لفظٍ وأوضحِ بَيانٍ ، من غير تَصَنُّعٍ ولا لَبْسٍ . فإذا أغْفَلَ الكاتبُ هٰذه الأُصولَ الْجَوْهَرِيَّةَ ، ولجأ إلى الأسْلوبِ الْمُعَقَّد والاسْتِعارات الغامِضَةِ ، والكِنايات الغريبةِ ، ونَبا عن الأُسلوبِ السهل الصَّافى ، كان موضع سُخريةِ الناس ، وكان بَيانُه — فى نظرهم — كأنه ثَوْبٌ مُرَقَّعٌ لا جَمالَ فيه ولا رَوْعة .

° ° °

وهم يَجْمعون — إلى عِنايتهم بتهذيب النفس — عنايَتَهُمْ بإصلاح الجسم ، وتقويتِهِ بكلٍّ وسيلةٍ من الوسائلِ ، لأنهم يعتقدون أن العِناية بأحدهما — دون الآخر — لا تَكْفُل لهم وُجودَ الرَّجُلِ الكاملِ . ولا يَتَسَنَّى لإنسانٍ أن يصل إلى مرتبة الرُّجولة الكاملة إذا أهمل العنايةَ بأحدهما . وهم يُشَبِّهون الجسمَ والرُّوحَ بجَوادَيْنِ قد شُدَّا إلى مركبة لِيَجُرَّاها معًا . وثَمَّةَ لا يرَوْنَ بُدًّا من أن تكون خُطُواتهما متساويةً — في أثناء سيرهما — حتى لا يَخْتَلَّ التَّوازُنُ .

وعندهم أنك إذا قَصَرْتَ عنايتَك على تعهُّد عقلِ الطفل بالثقافةِ ، وأهملتَ العنايةَ بجسمه ، فإن الضعف واختلالَ الصحة كفيلان بإتلاف هذا الثَّمرِ الشَّهِيِّ . على أنك إذا قَصَرْتَ عنايتك على تعهُّد جِسْمِه وأهملتَ العناية بتثقيفه ، فإن الحماقةَ والجهلَ يملآن عقلَه ، فلا يستطيعُ أن يؤدِّيَ لوطنه ما يَفْرِضُه عليه من الواجباتِ والفُروضِ .

° ° °

وهم يَحْظُرون على المدرسين أن يُعاقِبوا تلاميذهم عقابًا يؤذيهم في أبْدانهم ،

فحَسْبُهم أن يَحْرِموهم بعضَ المزايا التى تَطْمَحُ إليها نفوسُهم — إذا لم يجدوا بُدًّا من عِقابهم — وكثيرًا ما يُعاقِبون الطَّالب بحرمانه حُضورَ دَرْسَيْنِ أو ثلاثةٍ ، فيكون لذٰلك العقابِ أبلغُ الأثر فى نفسه .

وربما تظاهرَ الْمُعَلِّمُون أمام الطالب بأنهم لا يَرَوْنَهُ أهْلًا للتعليم إذا لم يتعهَّدْ نفسَه بالإصلاح ، ويُقْلِعْ عن الوقوع فيما وقع فيه من خَطَإٍ .

وهم يبتعدون كلَّ الابتعاد عن ضَرْبِ الطالبِ أو إيلامِه ، لأنهم يَرَوْنَ أن أمثالَ هٰذا العِقابِ يُعَوِّده الخوفَ والجُبْنَ — منذُ نَشاءتِهِ — فلا يُشْفَى منهُما فى مُسْتَأْنَفِ حياته .

١ — دَسائِسُ الوُشاةِ

يَحْسُنُ بي أن أُطْلِعَ القارئَ على الدَّسيسة السِّرية المجرمة التي دبَّرها أعدائي رغبة في الكيد لي والانتقام مني . قبل أن أُغادرَ إمبراطورية « ليليبوت » . فقد أراد الأعداء — بهذه الدسيسة — أن يقضُوا على حياتي ، وأبى اللهُ إلَّا أن يخيِّبَ آمالهم، فكانت هذه الدسيسة سببًا في تعجيل خروجي من هذه البلاد ، فِرارًا من التنكيل بي ، وهَرَبًا من انتقام الوُشاةِ والدسَّاسين .

الحقَّ أقولُ : إنني لم أُخْلَق لتعلُّم واجِبات القصر ، وما تقتضيه مناصب رجال الحاشية من مَراسِيمَ ، وليس لديَّ من الْمَهارة واللَّباقَةِ ما يُمْكِنني من مُجاراةِ هؤلاء الناس . فقد كانت صَراحة كلامي وقِلَّةُ احْتِياطي سببًا في إغضاب الإمبراطور ، ورأى أعدائي في ذلك — كما قلت — فرصةً سانِحَة للكيد لي عِنْدَهُ . وما إن تأهَّبْتُ للسفر لزيارة إمبراطور « بليفسكو » حتى جاءني عظيم — من كبار رجال القصر — كان يَمْحَضُني الوُدَّ والنُّصْحَ ويُخلصُ لي أشد الإخلاص ، وكنت قد أسْدَيْتُ إليه صنيعًا

— ذات يوم – فلم يَنْسَه لى . جاءنى هذا الصديق خُفْيةً — وأنا جالس ذاتَ ليلةٍ — على غير مَوْعِد ، فعجبت من هذه الزَّوْرَةِ الْمُفاجِئة . وما اسْتقرَّ فى بيْتى حتى أمر أَتْباعه بالانصراف ، وأشار لى بأنه سيُفْضِى إلىَّ بحَديث سِرِّيّ ذى شأن ، فصرفْتُ خدَمى وأغلقت الباب ، ووضعت صاحبى فوق



مِنْضَدَتى ، ثم أنْصَتُّ إلى حديثه إنصاتًا ، فبدأ كَلامَهُ بالتَّحِيَّةِ ؛ وما أَتَمَّ تحيته ، حتى لَمَحْتُ – على وجهه – أماراتِ الحزن والكآبة ، فسألته – متعجبًا — عن سِرِّ حزنه وألمه ، فقال لى :

« أرجو أن تُصْغِىَ إلىَّ — ياصديقىَ العزيزَ — فإن الأمر جَلَلٌ ، إذْ أنَّ حياتَك وشرَفَك فى خطر ! »

فاشتد عجبى ، وسألته عما يَعْنِيه بذلك ، فقال لى متأثرًا كئيبًا :

« لقد عقدوا — منذ زمن قصير — عدة لِجانٍ سرِّية ، وقد نجحت بها

مؤامراتهم الدنيئة ، وأصدر المؤتمرون بك قرارًا مُفَزِّعًا . وما أظنك تجهل أن وزير الحربِ يُبغِضك ويحسُدك وينتهز كلَّ فرصة لِلائتمار بك — منذ حللتَ هٰذه البلاد — ولست أعلم لهذا العِداء سببًا . على أن حِقْدَ هٰذا الوزير قد زاد عليك — بعد انتصارك الباهر على أهل « بليفسكو » وظَفَرِك بأُسطولهم — فما إن رأى هٰذا الفوز حتى اضْطَغَنَ عليك اضْطِغانًا شديدًا ، ونَفَسَ عليك هٰذا النجاح الذى كان يتمنى لو أصابه لِنَفسه . وقد اتفق — هُوَ ووزير المال ، وقائدُ الجيش ، وكبيرُ الأمناء ، وقاضى القضاةِ — على تدبير مؤامرة خبيثة جارِمَةٍ للانتقام منك وإهْلاكِك ، فعَزَوْا إليك كثيرًا من التُّهَمِ التى لم تَقْتَرِفْ واحدةً منها ، وزعَموا — فيما زعَموا — أنك قد أسأت إلى الإمبراطور ، وفى هٰذه التُّهَمَة — وحدها — ما يُبَرِّر إهلاكَكَ . »

وما إن سمعتُ منه هٰذا الكلام حتى بلغ تأثُّرِى وحزنى مبلغًا كبيرًا ، فأَرَدْت أن أُبَرِّئَ نفسى مما زعَموه ، فطلب إلىَّ — راجيًا — ألَّا أقاطِعَه ، وأن أُصْغِىَ إلى ما يقول : فسَكَتُّ عن الكلام ، فقال :

« ثِقْ — أيها الصديق العزيز — أننى لم أنْسَ لك ما أسلفته إلىَّ من صَنِيعٍ ؛ وقد بذلتُ قُصارَى جُهدى فى تعرُّف دقائق هٰذه المُؤامرة

وتفاصيلها ؛ وانتهى سَعْيِي أخيرًا بالحصول على صُورة التقرير الذى كتبه خصومُك ؛ وقد عَرَّضت نفسى للهلاك فى سبيل إنقاذِك . فلو انكشف سرّى لما كان لى من عقاب إلّا القتلُ . »

٢ — قَرارُ الاتِّهامِ

ثم ناولَنى قرارَ الاتهام ، فقرأته مدهوشًا حائرًا ، وإلى القارئ نَصَّهُ :

« أولًا . نَصَّ قانون الإمبراطورية — فى باب العقوبات — على أن كلّ شخص — أيًّا كان جِنْسُه — يدخل القصر الإمبراطورى من غير إذْن يعتبر مُسيئًا للإمبراطور ويكون معرَّضًا للمعاقبة بأقصى العقوبات ، وهو القتل . كما يَنُصّ — فى باب العُقوبات أيضًا — على أن كل من ألقى شيئًا من القاذورات على القصر الإمبراطورى يَستحقُّ القتل .

وقد ارتكب « عِملاق العمالقة » هاتين الجريمتين الشنيعتين ، زاعمًا أنه يريد إطفاء النار التى شَبَّت فى حجرة الإمبراطورة العزيزة ، فاقْتحم فِناءَ القصر الإمبراطوريّ — دون إذْنٍ من الإمبراطور — وأَلْقَى على النار ماءً قذرًا دنَّس به القصر . وكلٌّ جريمة من هاتين الجريمتين تَسْتَوْجِبُ العِقاب بالقتل جَزاءً عادِلًا لمن يرتكبها .

ثانيًا : بعد أن تغلب « عملاق العمالقة » على أسطول « بليفسكو » وأحضره إلى هٰذه البلاد ، أمره حضرةُ صاحب الجلالة الإمبراطورية أن يأتِيَهُ ببقية سفن الأعداء ، لتُصبح إمبراطورية « بليفسكو » مستعمَرة تابعة لإمبراطورية « ليليبوت » ، وليتمكن جلالة الإمبراطور من مُعاقبة زُعَماء الفتنة والثائرين الذين هربوا إلى تلك البلاد ، ويُنَكِّلَ بهم جزاء تحريضهم على الثورة والعِصيان ، ولكن « عملاق العمالقة » لم يُلَبِّ أمر الإمبراطور ، وأَبَى إلّا الإصرارَ على عِصْيانه ومخالفته ، معتذرًا بسبب واهٍ هو اشْمِئْزازُهُ من الإقدام على خَنْق شعب نبيل ، وإذلالِ أُمة حُرَّة بريئة .

ثالثًا : لم يَكَد يأتى سُفَراءُ « بليفسكو » - منذ أيام قليلة — إلى قصْر « ليليبوت » طالبين الصلح مع جلالة الإمبراطور ، حتى تقدم « عملاق العمالقة » إلى جلالته ، باذِلًا كل ما فى وُسْعِه لتخفيف العقاب ، متَشَفِّعًا فى أعداء الإمبراطور ، وهو يعلم — عِلْمَ اليقينِ – أن هٰذا الوَفْدَ يُمَثِّل أُمَّةً طالما ناصَبَتْنا العِداء ، وشَنَّتْ علينا حربًا ظالمة ، وليس لهذه الشَّفاعَةِ الْمُجْرِمة إلا معنًى واحد ، هو خِيانَةُ الدولة والْكَيْدُ لها .

رابعًا : اعْتزم « عِمْلاقُ العمالقة » أن يسافر إلى « بليفسكو » - بعد أن

خانَ إمبراطورَنا ولم يُؤَدِّ له واجِبَ الإخلاص والأمانة المَحْتُوم على كل فرد من الرَّعِيَّة — وهو على أُهْبَةِ السفر إلى بلاد الأعداء ، من غير أن يَحْصُل على إذْنٍ رسميٍّ من جلالة الإمبراطور ، مكتفيًا بإجازة شفوية ، وفى هٰذا أكبر دليل على جُرْأَته وخِيانته ، وميله إلى مساعدة إمبراطور « بليفسكو » عَدُوِّنا اللدود . »

٣ — مُناقَشَةُ التَّقرِيرِ

ثم قال لى ذٰلك الصديقُ العزيزُ :

« إن هـذا التقرير يحتوى أَدِلَّة أُخرى لم أَشأْ أن أَنقُلَها إليك ، فقد اكتفيتُ بنقل أَهمِّها وأَعظمِها خَطَرًا ، ولست أَكتُمُك أَن جلالة الإمبراطور قد ناقش هٰذا التقرير وأظهر مَيْلَهُ لِلاعتـدال والعَطْف ، وقرَّر — أمام المجلس — أَن العدلَ يقضى عليه بأن يَعْفُوَ عنك ؛ وأَن حُسْنَ نيتك ، وما أسلفْتَه إلى الدولة من — أعمال جليلةٍ — يُقلِّل من مُؤاخَذَتِك ، ويشفعُ لك فى العفو عما أَلْصَقُوهُ بِكَ من تُهَمٍ شنيعة .



ولٰكن وزير الحربِ ووزير المالِ وقائد الجيش كانوا يميلون إلى الاقتصاص منك ، وقتلك أشنعَ قِتلة . وقد اقترحوا أن يوقدوا النار فى مسكَنِك ليلًا ، وأن يقفَ القائدُ ومعه عشرون ألفَ فارس معتمِدين قِسيَّهم ، مُتحفِّزين لإطلاق سهامِهم المسمومة — على وجهك ويديك — إذا حاولت الفِرار من الحريق .

ورأى غيرهم أن يَصْدُرَ أمرٌ سِرىٌّ إلى بعض خدمك بأن يُلقُوا فى ثيابك عَصِيرًا سامًّا لا يمس جلدك حتى يُمَزِّقَه تمزيقًا ، ويَفْتِك بجسمك فَتْكًا ذريعًا . وقد وافق القائد على هٰذا الرأى ، ولٰكن جلالة الإمبراطور أَصَرَّ على إنقاذ حياتك ، وانضم إلى رأى جلالته كبير الأُمَناء . وقد وافق أمينُ أسرار الحكومة « السكرتير » — حين سُئِلَ عن رأيه — على أن يُصْدِرَ الإمبراطور عَفْوه عنك — وأنت تعرف أنه من خُلَصائك ومُحِبِّيك — وقد اتفق معهم على أن التُّهَمَ التى أَلْصقوها بك خطيرةٌ حقًّا ، ولٰكنَّ إخلاصَك وحسن نيتك جديران بالشفاعة فيما اقترفْتَه من جُرم . وقد طلب أن يخففوا العقوبة إلى أقصى حدود التخفيف .

وقال لهم — فيما قال — : « إن صداقتى وإخلاصى لعملاق العمالقة معروفان لا سبيل إلى إخفائهما ، وربما كان ذٰلك مستوجبًا لِلظِّنَّةِ والرِّيبة فى أمرى ،

فقد يحسب بعض الناس أنني أُحابيه ، ولٰكنني لا أَعْبأ بمثل هٰذا الاتهام ما دام في ذٰلك إرضاءُ ضميري وإرضاءُ الحقيقة ، فأنا أرى أن تَذْكُرُوا جلائلَ أعماله ، وأن يكون — فيما أسلفَه من جميل الصُّنْع — ما يخفِّفُ مِن محاسَبَتِنا له على جرائمِهِ .

ولا أحسَب أن جلالة الإمبراطور يأبَى أن يُنْقِذَ حياة هٰذا الرجل ، مكتفيًا بفَقْءِ عَيْنَيْهِ ، وفي هٰذا عِقابٌ رادِعٌ وتحقيق لرحْمة الإمبراطور وشفقتِه . وفي ظَنِّي أن ذٰلك العِقابَ يُوافق مصلحةَ الدولة ، لأن حياة هٰذا العملاق نافعة للبلاد ، وهو قادر — بعد ذلك — على القيام بكل ما تَفْرِضه عليه الدولةُ من الواجبات التي تحتاجُ إلى القوَّة الجِسْمِيَّةِ . »

ولٰكنَّ جميع الحاضرين امْتَعَضُوا ، وأصرُّوا على رفض هٰذا الاقتراح .

ثم قام وزير الحربِ غاضبًا — يكاد يَتَمَيَّزُ من الغيْظِ — وقال :

« إنِّي لَفِي حَيْرَة شديدة من هٰذا الرأي القائل الذي أبداه لنا أمين أسرار الحكومة ، وإني لفي أشد الدهشة من إشفاقه على هٰـذا الغادِرِ وضَنِّه بحياة مجرم خائن للدولة . أمَّا الأعمال التي يزعُم أن هذا العملاق قد أدَّاها للدولة فهي — كما ينص القانون — جرائمُ شَنِيعَة ، فهو لم يُطْفِئ النار إلا بعد أن

أَلقى على القصر ماء قذرًا . وإن من يقدر على إطفاء الحريق — فى لحظة واحدة — يقدر كذٰلك على إغراقِ القصر والمدينة كلها من غير أن يُكَبِّدَه ذٰلك أيَّ عَناء ؛ وإنَّ من يستطيع أن يتغلب على أسطول العدو بِمُفْرَده — إذا رَضِيَ — يستطيع كذٰلك أن يَرُدَّ أسطول الأعداء إليهم إذا غَضِبَ ؛ وإن من يرفض أمر الإمبراطور ، ولا يُلَبِّي إشارَتَه ، لَهُوَ رجلٌ خائن للدولة مُواطِئٌ لأعدائها . وليس لهٰذا العاقِّ الغادر من جزاء — على عُقوقه وغدره — إلا الموتُ العاجِل ، فإذا تهاوَنْتُمْ فى أمره أصبح حَرْبًا عليكم ، وإلْبًا مع أعدائكم . فلا تترددوا لحظة واحدة فى التخلص منه وإهلاكه ، دون أن تأخذَكُم — فى ذلك — هَوادَةٌ ، أو تَثْنِيَكم عنه رَأْفَةٌ أو رحمة . »

وما سمع وزير المال هٰذه الْحُجَجَ حتى أَقَرَّها ، وأعلن ارتياحه لما أبداه وزير الحربِ من السَّداد والحكمة ، وأَصالة الرأى ، وبعد النظر .

ثم قال وزير المال مُعَقِّبًا :

« على أن خِزانَةَ الدولة قد نَقَصَتْ نَقْصًا عظيمًا بما أنفقناه على هٰذا العملاق من المال الجسيم ، وإن كل يوم يمر على بقائِه فى هٰذه البلاد يُكَبِّد الدولة

نفقات طائلة لا تحتملها الْخزانة العامة . أما هٰذه الطريقة العجيبة التى يراها أمين أسرار الحكومة ، فهى أَضَرُّ علينا — وعلى البلاد — من بقائه سالِمًا . فإنَّ فَقْءَ عينيه — وإن أَضَرَّ بِهِ — يَزِيدُ شَهِيَّتَه للأكل ، كما تدل على ذٰلك المشاهدات والاختبارات . ولعلكم عرَفتم أن فَقْءَ عيون الطيور يَزيد شَهِيَّتها للطعام ، ويجعلها تَسْمَنُ بسرعة شديدة . ولا شكَّ أن جلالة الإمبراطور وأعضاء مجلسه كلِّه — الذى انعقد لمقاضاة « عملاق العمالقة » — مقتنعون كل الاقتناع بأنه ارتكب جرائم وخطايا تستحق الإهلاك ، وفى هٰذا مُسَوِّغٌ كافٍ لتنفيذِ أحْكام القانون بِلا تَرَدُّدٍ ، أو مُناقشةٍ . »

• • •

ولما كان الإمبراطور لا يوافق على القتل ، قال للمجلس متلطِّفًا :

« إذا كنتم تَرَوْنَ أن فَقْءَ عينيهِ عِقَابٌ خفيفٌ ، فَاشْفَعُوهُ — إذا شئتم — بِعِقاب آخر . » .

فتشجع أمين أسرارِ الحكومةِ حين سمِع كلام الإمبراطور ، والتمس من المجلس — فى خُضوع — أن يسمح له بالرد على قول وزير المالِ . فلما أَذِنَ له المجلسُ ، قال :

« وإذا كان وزير المالِ يرى أن غِذاء هٰذا العملاق يكبد الدولة مالا طائلًا ، فإن فى قدرته — وحدَه — أن يعالج ذلك بطريقة أُخرى غيرِ الإهلاك ، فيقلِّلَ من طعامه شيئًا فشيئًا ، وبهٰذا ينتهى أمرُ العملاق إلى الضَّعْفِ والهُزالِ ، وفِقْدانِ شهيَّة الأكل ، ثم يُسْلِمهُ ذلك إلى الموت . »

• • •

وهٰكذا استطاع صديقُك أمين أسرار الحكومة أن يُقْنِعَهم بهذه الفِكرة ، فاكتفَوْا بفقءِ عينيك وخَفْض طعامك حتى تَهْلِكَ جُوعًا . وقد سُجِّل ذلك فى محضر الجلسة . وقرر المجلسُ إنفاذ هذا القرار بعد ثلاثة أيام . وسيجيئك أمين الأسرار — بعد مضى هذه المدة — فَيَتْلُو عليك هذا القرار ، ويُظهر ما أبْداه المجلس من الرحمة بك والشفقة عليك — حين اكتفَى بفَقْء عينيك — ثم يكتُم عنك بقية القرار لأنهم آثَرُوا كِتْمانه .

وسيجىء — مع أمين الأسرار — عشرون جَرَّاحًا من مَهَرَةِ أطباء جلالة الإمبراطور ، لِيَفْقَئُوا عينيك ، بعد أن يُسَدِّدوا سِهامهم الحادَّة إلى حَدَقَتَيْهما ، وأنت مَطْروحٌ على الأرض .

وقد اعتقد جلالة الإمبراطور أنك سَتُذْعِنُ لهذا العِقاب ، وترضَى به ،

بعد أن تعرف أنهم قد عدَلوا عن قتلك .

والآن – يا صديقى – أرجو أن تأذَن لى فى الانصراف خُفيةً ، وقد أدَّيْتُ لكَ حق الصداقة ، وأخبرتك بكل ما دار ، حتى تكون على بَيِّنَةٍ من أمرك . »

ثم عاد هٰـذا الصديق الوَفِىُّ – من حيث أتى – وتركنى وحدى مستسلمًا لهمومى وحَيْرَتى .

٤ – هروب « جلفر »

كانت هٰذه البلاد – فيما علمت وكما أَثْبَتَ لى أكثرُ من عرَفت – مثالًا من أمثلة العدل والإنصاف ، ولم يكن الحكام يستبدُّون بالرَّعِيَّة قبل عَهْدِ هٰذا الإمبراطور وأبيه وجَدِّه – كما أسلفتُ القول – ومتى ساد الْجَوْرُ ، واستسلم الحاكِمُ لأهْوائه ، كان ذلك مُؤْذِنًا بِسُوء الْمَآل . وهكذا أثار هذا الإمبراطور – كما أثار أبوه وجَدُّه من قبلُ – كثيرًا من الفِتَنِ التى نَجَمَتْ عن استبداده فى الحكم ، وما جرّه هذا الاستبداد من خَلق الْمُشْكِلاتِ التى لا تعود على البلاد بالنفع . وكان من سُنَّة هذا الإمبراطور التى سارها وارتضاها ولم يَشْرَكْهُ فيها أحد من أسْلافه – أنه كان يُصدر أشنع الأحكام فى أتْفَه



الذُّنوب ، ثم يُعلنها مُمْتَنًّا على شعبه بها ، على الرغم مما فيها من ظلم وإزهاق ، متغنِّيًا بصِفات العطف والرحمة والشفقة التى ميَّزه الله بها عن سائر الحكام . ثَمَّةَ تمتلئُ قلوبُ الناس رُعْبًا وهَلَعًا كلَّما سَمِعوه يتغنى بذكر الرَّحمة والشفقة والعدالة ، فقد طالَما أَلِفوا — فى أمثال هذه الألفاظ — مُقَدِّماتٍ لأقصى الأحكام الجائِرَةِ !

أما أنا فقد غَرِقْتُ فى بحر مِنْ الهُموم ، وتَحَيَّرْت فى أمرى ، ماذا أَصنع ؟ وكيف أَقول ؟ وهل أُقابل هذا الحُكْمَ راضِيًا مستسلمًا من غير أن يَسمع القُضاة دِفاعى عن نفسى ؟ على أننى كنت واثقًا كل الثقة أَلَّا فائدةَ من ذلك لو دُعِيتُ إلى مجلس القضاء . ولقد شهدتُ بنفسى قضايا لا تكاد تختلف عن قضيتى هذه ، ورأيت كيف انتهت وَفْقَ رغَبات القُضاةِ والحكام ، دون أن يُسمع لِمُتَّهَمٍ قولٌ مهما يكن صادقًا مُحِقًّا .

وتحرَّكتْ فى نفسى رغبة جامحة إلى الانتقام من هؤلاء الأَقزام الضِّعاف ، ودَكِّ إمبراطوريتهم على رُءُوسهم دَكًّا . فقد كان من اليسير على مثلى — وأنا حُرٌّ طَليقٌ — أن أقذف مدائنهم بالأحجار ، وأُدَمِّر حاضِرَةَ بلادهم فى زمن يَسِير .

ولكننى ذكرت اليمين التى أقسمتها للإمبراطور ، وذكرت ما غمرنى به هو وشعبه — حين قَدِمْت عليهم — من فضْل وعطف وتكريم ، ورأيت أن أدْفَعَ الإساءةَ بالإحسانِ ، وأن أكتفىَ بالْهَرَب من هذه البلاد ، فقد كنت على يقين أن قضاءَ ذلك المجلس لا بُدَّ نافذٌ ، وأن من سوء الرأى والْخَطَلِ أن أطمع فى الاحتفاظ بعيْنَىَّ وحريتى وحياتى ، بعد أن أصدر ذلك المجلسُ قضاءه الْمُبْرَمَ فى أمرى . وقد زادنى إيمانًا بهذه العقيدة أننى رأيت كثيرًا من الْمُتَّهَمين قد حوكموا فى جرائمَ — أقلَّ خطرًا من جُرمى — دون أن تأخذ القضاةَ فى أمرهم هَوادَةٌ ولا رحمةٌ

وثَمَّةَ انتهزت فرصة التَّرْخِيص الشفوىِّ الذى ظفِرت به من الإمبراطور لإعداد العُدة إلى « بليفسكو » ، وبادرت — قبل أن تنقضِىَ الأيام الثلاثة التى أَجَّلَ بها مَجْلسُ القضاء إنفاذَ حكمه — فأرسلت كتابًا إلى صديقى أمين أسرار الحكومة بما استقرَّ عليه عزمى : من السفر — فى ذلك اليوم — إلى « بليفسكو » بعد أن ذكرت له — فى ذلك الكتاب — أننى إنما أفعل ذلك بعد أن رَخَّصَ لى جلالة الإمبراطور

ولم أنتظر رَدَّه على كتابى ، فسرت — مُجِدًّا فى سيرى — حتى وصلت

إلى شاطئ الجزيرة حيث الأسطولُ ، فأخذت سفينة حربية كبيرة ، وربطت حبلًا فى مقدمتها ، ثم رفعت مِرْساتَها ، وخلعتُ ملابسى ووضعتها هى وغطائى فى تلك السفينة ، وجذبتها إلى الماء . وما زلت سابحًا — طَوْرًا أعتمد عليها ، وطورًا أسبح إلى جانبها —



حتى وصلت إلى ميناء « بليفسكو » ، حيث رأيت الشعبَ ينتظِر قدومى بشوق شديد منذ زمن طويل . وقد قدَّموا إلىَّ مُرْشِدَيْن سارا بى إلى عاصمة بلادهم . وقد رفعْتُهما بيدَىَّ حتى وصلنا إلى باب المدينة ، ثم رجوتُ مِنْهما أن يُبلِّغا أَحدَ الوزراء نبأ قُدومى ، وبَقِيتُ فى مكانى ، وأنا أُراقِبُ أمر جَلالة إمبراطور هذه البلاد . وبعد ساعة من الزمن جاءنى الرد بأن جلالة الإمبراطور وجميع الأُمَراء والوزراء قادِمون لاستقبالى ، فتقدَّمْتُ بِضْعَ خُطُواتٍ حتى لَقِيتُ الإمبراطورَ وحاشِيَتَهُ — وَهُمْ على جِيادهم — ورأيت الإمبراطورةَ وحاشيتها قد خرجن مع الإمبراطور لاستقبالى ، فاستلقيت على الأرض ليتَسَنَّى لى أَن أُقَبِّل يدى الإمبراطورِ والإمبراطورة .

وقد صادَفْتُ من إكرام القَوْم ، وحسن لِقائهم ، واحْتفائهم بى ، ما لا أستطيع أَن أَصفه ، وقد قلت لجلالة الإمبراطور : إننى جئت إلى بلاده — بَرًّا بوَعْدِى — بعد تَرْخِيص إمبراطور « ليليبوت » .

ولم أَشأْ أَن أُحَدِّثَه عن غدْرِ ذلك الإمبراطور ورجالِه بى . ثم قلت له : إننى مستعد لتلبية كلِّ ما يأمرنى به جلالته ، إلَّا فيما يعود على إمبراطور « ليليبوت » بالْخَسارَةِ والضَّرر .

* * *

وما أَحسَبُ القارئ يطمع منى فى تفصيل ما شَمِلنى من الْحَفاوة والابتهاج والتلطف والعناية فى هذه البلاد ، فإن ذلك يحتاج إلى إسْهابٍ وتَطْويلٍ ، قد يُضْجِران القارئَ ، إذ لا يجد فيهما فائدة تعود عليه .

وحَسْبُ القارئ أن يعلم أَننى كنت على أسعد حال ، وأَهنإِ بال . ولم يكن يُعْوِزُنى — فى هذه البلاد — إلَّا وجود بيت أَسكنه ، وسَرير يُناسِبُ حجمى . ولِذلك اضطُرِرْت إلى افْتِراشِ الأرض ، مُلْتَحِفًا غِطائى الذى جئت به إلى هذه البلاد .

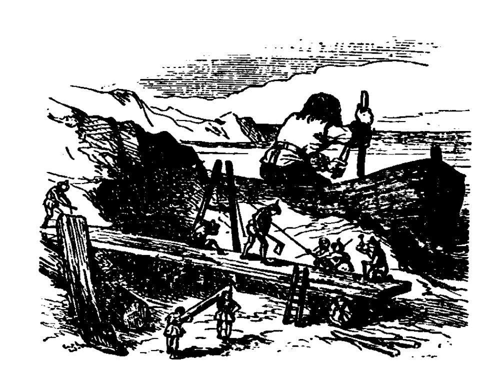
١ — زَوْرَقُ الْخَلَاصِ

وبعد ثلاثة أيام من وُصولى إلى تلك البلاد الجميلة — خرجت لأتنزَّه على شاطِئِ الجزيرة الْمُشْرِف على الجهة الشماليَّة الشرقيةِ ، وأنا أتأمَّل فى جمال البحر ، فرأيتُ — على بُعد نصف ميلٍ — شيئاً يتحرَّك ويتقاذفه الْمَوْجُ ، فلم أسْتَطِعْ أَنْ أَتبيَّنَه بوُضوحٍ ، وإن كان يلوحُ لى — من بَعيدٍ — أنه سفينة مقلوبةٌ . فخلعت حِذائى وجَوْربى ، وسرت فى الماء خَوْضاً نحو ثلثمائة مترٍ .



فَرَأيت ذلك الشَّبَحَ يندفع — إلى ناحيتى — بقوَّة شديدة ، فعلمت أن قوَّة الْمَدِّ تَدْفَعُه إلى الشاطئ . ولما اقترب منى قليلًا استطعت أن أَتبيَّنَه بوُضوحٍ ،

فإذا هو زورق كبير . فدار بخَلَدِى أن عاصِفَةً من العواصف قد فصلته عن السفينة التى شُدَّ إليها . فعُدْتُ أدراجى إلى المَدينة ، والتمست من جلالة الإمبراطور أن يُعيرَنى عشرين سفينةً من السفن الكبيرة التى بقيَتْ عنده – بعد أن فقدَ أُسطوله – وأن يَصْحَبَنى ثلاثَةُ آلافِ ملَّاحٍ ، ومعهم رُبَّانهم . فأجابنى إلى مُلْتَمَسى فى الحال ، وسارت السفن تَشُقُّ عُبابَ البحرِ



مسرعةً ، وذهبتُ أنا من أقرب طريق إلى الشاطِئ ، فرأيت أن الْمَدَّ قَرَّب الزورقَ ، فأصبح على مسافة قليلة من الْيابِس . ولما دانَتْنِىَ السفن . نَزَعْتُ ثيابى وسِرْت فى الماء متقدِّمًا نحو مائة متر ، ثم سَبَحْتُ قليلًا حتى وصلت إلى

الزَّوْرَق . وألْقَى المَلَّاحون إليَّ حبلًا متينًا ، فربطت أحد طَرَفيه بحَيْزُوم الزَّوْرَق ، وشَدَدْتُ الطَّرَف الآخر إلى سفينة قريبة ، وسَبَحت خلفَ الزورق ، ودفَعته بإحدى يديَّ ، وساعدنى الْمَدُّ فى التقدم إلى الشاطئ . ولمَّا رأيت الأرض قريبة منِّى ، وقفت على قدميَّ ، واسترحتُ دقيقتين أو ثلاثًا ، ثُم دفعت الزورق بقُوة — وقد غمرنى الماء إلى إبطَىّ — وقذفُوا إلىّ بحبال أُخرى ، فشدَدْتُها إلى الزورق ، وساعدتنى سُفُنُ الأقزام وملَّاحوها ، واعتدال الريح ، حتى أصبح الزورق على بُعد أربعين مترًا من الشاطئ . وصَبَرْتُ حتى انتهى وَقت المدِّ وأعْقَبَهُ الْجَزْرُ ، فانحسَرَ ماءُ البحْر واستقرّ الزورق على اليابِسَةِ . وساعدنى ألْفا رجلٍ — بقوَّتهم وحِبالهم وآلاتِهم — على رفع الزورق . ففحصتُ عَنْهُ لأطَمَئِن عليه ، فلم أجد فيه إلا عَيْبًا يسيرًا .

ولم تَمُرَّ علىَّ عشرةُ أيام حتى أصلحتُ الزورق، وأدخلته ميناء « بليفسكو » ، فاحتشد جُمهورٌ كبير من الشعب ليشْهَدُوا هذه السفينة التى لم يروْا لها مثيلا فى كِبَرَ حجمها ، وقد عجبوا من ضَخامتها أشدَّ العَجَب .

٢ — بينَ الإمبراطورَيْن

ولم أسْتطِع أن أكْتُمَ فرحى عن إمبراطورِ « بليفُسْكو »، فقلتُ له مبتهجًا :

« إنَّ حُسْنَ حَظِّى قد ساقَ إلىّ هٰذا الزورقَ لِيُقِلَّنِي (لِيَحْمِلَنِي) إلى أيِّ مكان آخرَ أرْحَلُ منه إلى بلادى . »

والتمست منه الإذْنَ فى السفرِ — بعد أيامٍ — فأُذِن لى فى ذٰلك بعد إلحاحٍ طويل ، فقد أظهر لى حِرْصَه الشديدَ على بقائى ضَيْفًا فى بلاده ، ولٰكنَّه أجابَنى إلى طِلْبَتِي ، بعد أن أظهرتُ له حنينى إلى وطنى وأهْلِي .

. . . .

أما إمبراطورُ « ليليبوت » فقد كفَّ عن مُطَارَدَتى — عَقِبَ خُروجى من بِلادِهِ — وكان يحسَب أننى لا أعرِف شيئًا عن حكم مجلس قضائه علىَّ، ورغبته فى الانتقام منى . فاطمأنَّ — بادئَ الأمر — وظن أننى سأعودُ من « بليفسكو » إليه بعد أيام قليلة ، بَرًّا بوَعْدى إيَّاه . فلما طالت غَيْبتى اشتد قلقه ، وعقد مجلس الشُّورى ، فقرر المجلس اسْتِدْعائى إليه ، وأرسل إلى إمبراطور « بليفسكو » رسولًا يطلب إليه أن يساعده فى إرسالِي إلى « ليليبوت » لتنفيذ قرار الإمبراطور. وقد أخبر الرسولُ إمبراطورَ « بليفسكو » أن إمبراطور « ليليبوت » قد اكتفى بِفَقْءِ عينَيَّ، وأننى قد فَرَرت هاربًا من القِصاصِ العادِلِ ، وأننى إذا لم أُلَبِّ دعوة الإمبراطور ، استردَّ منى لقب

« مُرداك » ، وأعلن اتّهامى بالخيانة العظمى . ثم قال الرسولُ ، فيما قالَ :

إن جلالةَ مولاهُ الإمبراطورِ يأمُلُ من جلالةِ إمبراطور « بليفُسْكو » أن يُصْدِرَ أَمرَهُ — حِرْصًا على السّلام والصّداقة — بإعادتى مَغْلولَ اليدين والقدمين إلى « ليليبوت » ، ليُوقِعَ بى الجزاءَ العادلَ الذى اقتضته إرادةُ جلالته .

فعقد إمبراطور « بليفسكو » مجلسِ الشُّورى ، وظلُّوا يَتَدَاوَلون الرَّأْيَ — فى أَمرى — ثلاثة أَيام ، ثم قرَّ قَرارُهم على الرفض . فأرسل إمبراطور « بليفسكو » كتابه — رَدًّا على إمبراطور « ليليبوت » — وكان غايةً فى السَّدادِ والحِكْمَة وقد قرر فيه أَنه لا يستطيع — بِحالٍ من الأحوال — أَن يُجيب الإمبراطور إلى طِلْبَتِه ، وأن هٰذا الضيف — وإن كان قد سَلَبَه أُسطوله — قد قام إزاءَ ذٰلك بأعمال جَليلة ، وكان خيرَ وَسيطٍ فى إبْرامِ صُلْحٍ عادِلٍ مُشَرِّفٍ بين البلديْن . وليس من كَرَم الضِّيافة أن يُسْلِمَ الْمُضيفُ ضيفَهُ إلى خصْمه لينتقم منه .

ثم قال فى خِتام كِتابه :

« على أننا سنتخَلَّصُ منه بعد أيام قليلة ، فقد وَجد على شاطىء البحر سفينة عظيمة ، تستطيع أن تحمله إلى وطنه .

ومتى غادر بلادَنا ، خلصت الإمبراطوريتانِ مِمَّا يُكَبِّدهُما العملاقُ الهائلُ منْ أموال كثيرة . »

* * *

فعاد الرسولُ إلى « ليليبوت » ، وسلَّمَ إلى إمبراطورها ذلك الكتاب . ولا عِلْمَ لى بما حدث هناك ، وما أدْرِى كيف وقع الكتاب من نفوسهم بعد أن قرأُوا ما فيه . وقد قص علىَّ إمبراطور « بليفسكو » كل ما وقع ، وأثبَتَ لى فى أُسلوب رقيق أنه يُرحِّب ببقائى — إذا شئتُ — طولَ عمرى .

٣ — فى عُرْضِ البَحْرِ

على أن حَنينى إلى وطنى ، ورَغبتى فى التخلُّص من الغُرْبَةِ ، قد جعلانى لا أتردد فى عزمِى على الرحيلِ ، فرجَوْتُ من الإمبراطور — مُتلطِّفًا — أن يأذَن لى فى السَّفرِ ، وقلت له :

« ما دام الحظُّ قد ساقَ إلىَّ هٰذا الزورق ، فإننى على ثِقَةٍ أن العِناية الإلٰهيةَ قد شاءت خَلاصى ورُجوعى إلى وطنى ، دون أن أكونَ سَبَبًا فى وُقوعِ حَرْبٍ جديدة بين البلدين . »

ولست أظُنُّ أن الإمبراطور قد استاء من هذه الصَّراحَةِ ، بل إنى لأحسَبُه قد ارْتاح إلى طلبى هذا ، تخلُّصًا من نَفقاتِ غِذائى المُرْهِقَة .

* * *

وبعد أيام قليلة أتممْتُ صُنْعَ شِراعَيْن للزورق — بعد أن ساعدنى فى ذلك خمسُمائة عامِلٍ من أمْهر عُمَّالهم — ثم جمعتُ كثيرًا من الحبال المتينة ، وضَمَمْتُ بعضها إلى بعض ، فصارت حبلًا واحدًا . فشدَدت إليه صخرة كبيرة ، لتكون لى مِرْساةً تَقِفُ الزورقَ متى شئتُ . ووضعت فى زورقى شحم ثلاثمائة ثورٍ ، ليكون عونًا لى عند الحاجة ، وقطعت كثيرًا من الأشجار الكبيرة لأتَّخِذَ منها سارِيَةً ومجاديفَ .

ولم يَمُرَّ علىَّ شهر حتى تأهبت للسفر لحزن الإمبراطور ورجال حاشيته لرحيلى ، وودَّعونى وَداعًا حارًّا . فاسْتَلْقَيْتُ على الأرض لأتمكَّنَ من لَثْم يد الإمبراطور ، وتَوْديع الأمراء والوزراء .

وقد أهدى إلىَّ الإمبراطور هديَّة نفيسة ، كما أهدى إلىَّ صورته . ثم استقْلَلْتُ الزورقَ ، بعد أن وضعت فيه لَحْمَ مِائَةِ عِجل وثلاثمائة خروف ، وكثيرًا من الخبز والماء ، وجملةً عظيمة من القَديد (اللحم المُجَفَّفِ) أعدَّه لى

أربعمائة قزم من طهاة الإمبراطور . وأخذت معى — إلى ذلك — ستّ بقرات ، وسبعة ثيران ، وعدة نعاج وكباش ، كلها على قيد الحياة .

وإنما رأيت أن أحملها معى إلى بلادى لتكون شاهدًا على إقامتى فى تلك البلاد . وكذلك وضعت فى زورقى شيئًا من الشعير والحنطة . وكان بودّى أن أصطحبَ ستةَ أقزام ، ولكن أبَى علىّ الإمبراطورُ ذلك ، وأخذ علىّ عهودًا ومواثيقَ ألّا آخذَ معى أحدًا من الأقزام ؛ ولو كان ذلك بمحضِ اختياره .

ثم أمر بتفتيشى — حتى يطمئن على ذلك — فلم يجد فى جيوبى أحدًا من رعيّته .

وقد أبحرت فى الساعةِ السادسة من صباح اليوم الرابعِ والعشرينَ من سبتمبر سنة ١٧٠١م . وقطعت نحو ستة أميال صوبَ الشمال ، وكانت الريحُ تهُبُّ من الجنوبِ الشّرقىّ . فوصلْت — فى الساعة السادسة مساءً — إلى جزيرةٍ صغيرة فى الشّمال الشرقىّ ، طولها نحو نصف ميل .

فاقتربتُ منها حتى وصلت إلى شاطئها ، فألقيْتُ الحجر حيث رسا

الزورق ، وجُلْتُ فى الجزيرة قليلًا ، فعلمت أنها غيرُ مَأْهُولة . فأكلت من الطعام الذى أحضرته معى ، وشربت ، واسترحْتُ قليلًا من عَناء السفر ، ثم استسلمت للنوم . وظللْت فى نومى زُهاءَ سِتِّ ساعات ، ثم استيقظتُ . وبعد ساعتين أشرق الصباح ، فأفطرت ، وكان الهواء — حينئذ — مُعْتدلًا ، والجوُّ صافيًا . ثم رَفَعْتُ الْمِرْساةَ من مكانها ، ووضعتها فى الزّورق ، وسرت فى عُرْضِ البحر مُيَمِّمًا جهة الشمال الشرقىِّ ، لعلِّى أَصلُ إلى إحدى الجزائر المعروفة ، وبَقِيتُ طولَ يومى لا أهتدى إلى مكانٍ أَستقرُّ فيه .

٤ — العَوْدَةُ إلى الْوَطَنِ

فلما جاء اليوم التّالى ، كنتُ قد قطعت — إذا لم يخطئْ حِسْبانى — نحوَ أربعةٍ وعشرينَ مِيلًا . وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر ، فَرأيتُ سفينةً مُتَّجِهَةً إلى الجنوب الشرق ، فنشَرْت شِراعى مُستنجدًا بها . وبعد نصف ساعة لَمَحَنى مَن فى السفينة ، فرفعوا العلَم فوقَها ، وأطلقوا مِدْفعًا ؛ فعلمت أنهم قد فَطِنوا إلىَّ ، وأيقنت بالخلاص .

وليس فى مَقْدُورى أن أَصِفَ للقارئ ما غمَرنى من الفرح والسرور حين تحقَّق أملى فى الخلاصِ، واقترَبَتْ ساعةُ الرُّجوعِ إلى بلادىَ المحبوبة ، وحانَ أن أرَى أُسْرَتى وأهْلى بعدَ يأْسٍ من اللِّقاء !

وَطَوَتِ السفينةُ شِراعَها ، وما زالت سائرةً حتى اقترَبتْ من زورقى فى الساعة الخامسة — أو السادسة — مَساءً . وما إن رأيْتُ عَلَمَ بِلادى مَرْفوعًا عليها ، حتى امتلأَت نفسى سرورًا وابتهاجًا، وشكرتُ — لِلّهِ تعالى — هٰذا التوفيقَ الذى يَسّرَتْه لى عِنايتُه . ثم وضعتُ البَقَراتِ والخِرفانَ فى جَيْبى ، وصعِدْتُ إلى ظَهْرِ السَّفينة ، بعد أن أَخذتُ من زورقى كل ما كان فيه من طعام .

وكانت هٰذه السفينة التِّجارية قادِمَةً من «اليابان» قاصِدَةً إلى «انجلترا» . وكان رُبَّانُها من أمْهرِ مَلَّاحِى عصره وأَشْرَفِهم نَفْسًا . وكان فى السفينة نحو خَمْسين بحارًا . وقد لَقِيتُ فيهم أحد أصدقائىَ القدَماء ، فتعارَفْنا — عَوْدًا على بَدْءٍ — وحَمِدنا لِلّهِ تعالى هٰـذه الْمُصادَفَةَ السعيدةَ . وقد أَحسن الكلام عنى — مع رُبَّانِ السفينة — ومدحنى بما شاء له أدبُه ووفاؤُه وإخلاصه .

وقد احْتَفَى بى ذٰلك الصديق وسألنى — متلهِّفًا — أن أُحَدِّثه

عن سبب وجودى منفردًا فى هٰذا الزورق الصغير ، ومن أين أتيت وإلى أين أَقصد .

فَأَوْجَزْتُ له قِصَّتى ، فلم يُصدِّقْها ، وحسِب أن آلامَ السفرِ ومتاعِبَ البحر قد أَثَّرت فى عَقْلى وأعْصابى ، وجعلتنى أَهْذِى ، ولا أَعرف ما أقول .

وأدركت ما يجول بنفسه من الشُّكوك والرِّيَبِ فيما قَصَصْته عليه ، فأخرجت من جيوبى ما أحضرتُه من البَقَرِ والخِرفان ، فتملكته الدهشةُ وَالْحَيْرَة ، وأيقن بِصدق ما قصصته عليه . ثم أَرَيْته ما أحضرته معى من دنانيرِ تلك البلاد ، وصورة إمبراطور « بليفُسْكو » ، وبعض التُّحف النادرة التى أحضرتها معى من هٰذه البلاد . وأعطيته شيئًا من تلك الدنانيرِ ، ووعدتُه بأن أُهْدِىَ إليه بقرة ونعجة حين نَصِلُ إلى « انجلترا » ! . . .

وما أحسَبُنى فى حاجة إلى أن أَقصَّ على القارئ تفاصيلَ العَوْدَة ، فهى لا تَعنيه ، ولم يقع فيها مما يستحقُّ الذِّكر إلا حادث واحد حزَنَنى كثيرًا ، فقد اختطفت فأرةٌ من فئران السفينة إحدى نعاجى !

وقد وصَلْنا إلى الوطن سالِمِينَ فى الثالثَ عشرَ من أبريل سنة ١٧٠٢ م ،

وأنزلتُ ماشيتي إلى البر ، وأحللتها مَرْعًى خصيبًا فى مَلْعَبِ كُرَةٍ فى ضاحِيَةِ « جرينوتش » .

وقد فَرِحَ أهْلى وأولادى وأصدقائى - بعودتى سالمًا - فرحًا لا يوصف ، ونعِمْت بقُربهم شَهْرَيْن . وقد جَنَيْتُ أمْوالًا كثيرةً فى أثناء إقامتى بينهم ، إذْ عرَضتُ تلك الحيواناتِ الصغيرةَ على طائفة الخاصّةِ ، وسَراةِ البلاد ، وفرَضْتُ على من يرغب فى رُؤْيَتِها ثمنًا معتدِلًا ، فكان الإقْبال عليها عظيمًا . ثم عرَضْتُها — بعد أيام — على سَوادِ العامّةِ ، وجَمْهَرَةِ الشّعْبِ ، فلم يكنْ لهم شُغْلٌ

سِواها ، فَرَبِحْتُ بذلك أَرْباحًا كَثِيرَةً . وبعد شَهْرَيْنِ بِعْتُها بِسِتِّمائة جُنَيْهٍ إنْجليزى .

. . .

وهكذا صَفا لِيَ الزَّمانُ ، وارْتاحَ بالِى من الْعَناء ، وقضيتُ فى وطنى شهرين ، وأنا عَلى خَيْرِ ما أكونُ من رَفاهِيَةِ الْعَيْشِ ، وراحَةِ النَّفْسِ .

الرّحلة الثانية

فى بلاد العمالقة

الخاتمة

جوناتان سويفت[1]

مؤلف رحلات « جلفر »

ولد « جوناتان سويفت » في « دوبلن » يوم ٢١ من نوفمبر سنة ١٦٦٧م . وهو من سلالة أسرة قديمة في كنتية « يورك » ، وقد نزوج جده « توماس سويفت » « إليزابيث دريدن » خالة الشاعر « دريدن » المشهور ، وكان « جودوين سويفت » – أحد أعمامه – من رجال القانون في « دوبلن » ، وكان والد المؤلف مدير فندق في هذه المدينة .

* * *

وقد ولد « جوناتان سويفت » بعد موت أبيه ، وكانت أمه لا تملك شيئاً من حطام الدنيا ، ولاتكاد تجد القوت ، فاضطرت إلى التماس المعونة من بعض أقاربها ، ثم نزحت تلك الأرملة الفقيرة الى«ليسستر» واضطرت اضطراراً إلى أن تسلم طفلها إلى مرضع رحلت به إلى « وتهافن » بانجلترا ، وأبقته عندها حتى بلغ السادسة من عمره ، ولكنها حين عادت به إلى « دوبلن » كان قد بدأ يعرف القراءة .

ولقد كان في هذه السن شرساً ، مفتول الساعدين ، مرهوب الجانب ، وكان مملوءاً صحة ونشاطاً ، ولم يستطع عمه أن يبقيه عنده ، فأدخله مدرسة « كيلكني » ثم ألحقه في عام ١٦٨٢ م بمدرسة « لاتر بنتييه » في القسم الداخلي ، وتولى الإنفاق عليه ، ولكن « سويفت » لم يلق نجاحاً في حياته الدراسية – برغم ذكائه الحاد – فقد كان أسوأ مثال للطالب ، وكان لا يفتأ يتشاجر مع أقرانه ، ويعاقبه مدرسوه على شراسته . على أنه كان مولعاً أشد الولع بالمطالعة ، وكان أحب الكتب إلى نفسه أبعدها عن دروسه . وكان من الطبيعي أن تنتهي حياته المدرسية بالخيبة والإخفاق ، ولكنه جاز – مع ذلك – امتحان البكالوريا بنجاح ، فأدهش نجاحه كل أساتذته الذين كانوا يترقبون – بملء الثقة – رسوبه في الامتحان .

وما إن التحق بالجامعة حتى صار خلقاً آخر ، وأصبح ذلك المثال السيء . خير مثال للطالب النابغ الممتاز ، واشتد شغفه بالعلوم ، لاسيما علمي التاريخ والتشريع .

ولما نشبت ثورة سنة ١٦٨٨م كان في العشرين من عمره ، فسافر إلى انجلترا خالي الجيب ، لا يملك شيئاً . وقد سافر إلى « ليسستر » على قدميه ، رغبة في استشارة أمه في اختيار المهنة التي يحترفها .

---

(١) اقتبسنا هذه الكلمة من ترجمة « سويفت » لتكون عوناً لحضرات المدرسين على فهم حياة مؤلف هذا الكتاب .

فرأت أمه فى ذلك فرصة حسنة ، فقد كانت أشد فقراً من ولدها ، وكانت فى حاجة إلى معونته ، وكان لها قريبة اسمها السيدة « تمبل » متزوجة رجلا اسمه السير « وليم تمبل » أحد كبار رجال الحكومة المعدودين ، وكان من الموثوق بهم ، فألحق الشاب « سويفت » بوظيفة سكرتير ، بمرتب ٥٠٠ فرنك فى السنة ، ولكن « سويفت » الشاب المتوثب الطموح لم يكد يلتحق بهذه الوظيفة حتى دب فى نفسه دبيب الملل منها .

ولعل ذلك الملل ناشىء من ضآلة مرتبها ، أو لأنه كان يضطر اضطراراً إلى تناول الطعام مع رئيس خدم الفندق فى المطبخ ، وقد حدث له أثناء وجوده مع السير « وليم » أنه حشد ضد الأرستقراطية كل ما فى نفسه من الأحقاد والآلام التى ظهرت آثارها العميقة فى كتاباته . وما أجدرنا أن نبادر فنذر بأن أحقاده تلك لم يكن لها مسوغ ، فقد كان « الشفاليه دى تمبل » يغمره دائماً برعايته وإخلاصه وفضله . ولما اعتزل ذلك السياسى الشيخ وظيفته ووهب وقته لغرس حديقته ودراسة الأدب أصبحت وظيفة « سويفت » السكرتير الشاب هينة سهلة ، وصار عنده من فراغ الوقت الذى يختص به أعماله الشخصية ما يساعده على تحقيق رغباته ، وقد مهد له اتصاله بالسير « وليم » السبيل للوقوف على أسمى المعارف الإنسانية ، ولم يكن هذا الشاب ليجد مرشداً له خيراً من هذا الشيخ ، وقد اتسعت مواهبه ونمت مزاياه الباهرة الخارقة نماء سريعاً . وكان السير « وليم » أول من لمح فيه ذلك النبوغ وقدمه إلى الملك « غليوم الثالث » فقدم له فصيلة من الدراجون ، ولكن « سويفت » لم يكن ذا نزعة عدائية حربية ، بل كان يميل إلى البقاء فى الدير ، وأراد السير «وليم» أن يدخله مكتب حامل الأختام . فرفض هذه المهنة أيضاً . وفى سنة ١٦٩٣ م ظفر بدرجة دكتور فى المثيولوجيا (علم الأساطير) ثم صار قسيساً ، وأصبح بفضل رعاية الملك وعناية السير « وليم تمبل » ظافراً بتحقيق شىء من أطماعه التى كانت منصرفة إلى الوصول إلى أسمى المراتب الكنسية ، ولم يكن يحلم بشىء إلا بالوصول إلى درجة رياسة الكهنة . وقد يئس كل اليأس بعد أن أخفق فى مساعيه التى لم ينل منها سوى تلك الوظيفة المتواضعة ، وظيفة قسيس ، فلم يلبث فيها إلا قليلا ، ثم انتزعها منه أحد الخونة . وقد توفى السير « وليم » بعد أن أوصى له بمبلغ زهيد هو مائة جنيه ، وأوصى — إلى ذلك — بأن يعنى بنشر مؤلفاته ، وكانت نزعة « سويفت » الهزلية قد ذاعت وعرفت عنه . ولما خشى اللورد « بركلى » أن يصيبه شىء من تلك النزعة وهبه كنيسة « دبلارا كول » . وفى سنة ١٧٠٠م ألحق بكتدرائية « سان ماتريك » فكفلت له خيراتها المختلفة دخلا سنويا قدره ١٠٠٠٠ جنيه . ثم انقطع « سويفت » إلى « لاراكور » حيث تفرغ لعمله كل التفرغ ، وقد ارتاح لجمال الخلاء ومباهج الطبيعة ، ولكن أطماعه لم تزل جادة فى سيرها ، وقد دفعته إلى النزوح إلى « لندن » ، فاندفع بنشاطه وهمته فى ميدان السياسة وأصبح فى سنة ١٧٠٤م من أكبر الزعماء ، ولما كان معروفاً بأنه نقاد لاذع فى نقده ، فائق فى أسلوبه التهكمى البارع — الذى ظهرت بوادره منذ سنة ١٦٩١ م فى « معركة الكتب » — ظفر من حزبه الذى يناصره ويدافع عن قضيته بأكبر قسط من التأييد . ثم فاجأته بعض الصدمات التى جرحت عزته وكبرياءه ، وأيأسته ، فلم ير بدا من العود إلى « لاراكور » . وقد نشر بين سنتى ١٧٠٤ ،

١٧١٠م عدداً من تصانيفه الهزلية ، وكان لبعضها أثر كبير فى مستقبل المملكة . ثم تولى بعد ذلك إدارة جريدة « الاجزامنر » ، فحمل فيها على كثير من الكبراء ، وسخر منهم ، وندد بهم فى قسوة عنيفة . ثم تزوج سنة ١٧١٩م « باسترجونسون » بنت وكيل السير « وليم تمبل » ، وهى فتاة جميلة ، وقد ذاع صيتها باسم « ستلا » .

ولما عاد إلى «إرلندا» نال شهرة شعبية عظيمة ، بحملاته على الوزارة الإنجليزية ، وافتتن الشعب عقب نشره « رسالة تاجر جوخ » . وقد حمل فيها على إصدار نقود ، وجرأ جميع مواطنيه على رفضها ، فأثرت تلك الرسالة فى حاكم الهند أشنع تأثير ، فأمر بمحاكمة الطابع . وقرر ٣٠٠ جنيه مكافأة لمن يدله على صاحب هذه الرسالة ، ولكن الطابع برىء . وأصبح « سويفت » بطل « إرلندة » المحبوب .

وكان فى كل مرة يزور فيها « إرلندة » تقام له الزينات وتسطع الأنوار . وكان يتحاشى كل هذه المظاهرات بوسيلة واحدة . هى الإسراع بالعودة إلى لاراكور » حيث أنجز وضع كتابه « جلفر » وهو أحد مؤلفاته التى سجلت اسمه فى عداد الخالدين .

وليست رحلات «جلفر» كما تبدو لأول وهلة مجرد قصص بسيطة عن الجنيات والعفاريت ، فقد توخى المؤلف فيها ، وهو يصف «ليليبوت» و «بربدنجاج» ، عرض أخلاق انجلترا تحت ستار السخرية .

وقد قال المسيو « تيرته » النقاد المشهور :

« إن كل موهبته وكل مؤلفاته قد تجمعت فى هذا الكتاب ، وإن عقله الخصب قد طبع فيه صورته وقوته ، ولست أرى أثراً رائعاً فى تصنيفه وفى أسلوبه مثل هذا الكتاب ، وما هو إلا صحيفة رجل عادى ، كان جراحاً ، ثم رباناً ، يصف بقوة وثبات ما وقع نظره عليه من الحوادث والأشياء . وكان « كوك » يكتب على هذا النحو ، ولكن « سويفت » قد طلب الحقيقة ، فأصابها ، وكان فنه فى عمله هو أن يجعل الفرض أساساً ثم يقرر الآثار التى تنجم منه . »

وقال مؤلف آخر : « إن سياحات « جلفر » لأشد حزناً من سياحة « دانتى » خلال الجحيم . فأنت عبثاً تلتمس فيها سبباً إلى السماء . فأى موازنة بين سياحة « بونتاجريل » و « رابيليه » الخيالية ؟

إن سفينة « بونتاجريل » كانت تجرى بعلم تام وبطبيعة تامة ، ورياح المستقبل تهب فى ثنايا شراعاتها : على حين أن « جلفر » الذى مثله « سويفت » كان يجرى دون أمل أو خيال ، فقد كشفت له البلاد الموهومة التى هبط إليها ، عن نقائص الإنسانية التى زادت خيبته زيادة شنيعة . وقد أدرك منها أن الإنسانية مستعصية الشفاء لا سبيل إلى إصلاحها واستئصال أدرانها ، وأن كل ما فيها إنما هو أنانية وشقاء ، وأن العالم – حين يتكشف عنها – يصبح نوعاً من النيران المتأججة فى الفضاء ، وقد عمل « سويفت » على تشويهها وتجريدها من قيمتها ، كما حقر المثل الأعلى للخلود . »

وقد رتب « سويفت » كل شىء بنظرة سائح مطمئنة ، كل غايته وسعيه متجه إلى شىء واحد : هو أن يظهر نفسه بمظهر الحقيقة ، وقد كان جادا فى قوله : «كان من صميم قلبى وبودى أن يصدر قانون يحتم على كل سائح ألا يذيع أنباء سياحاته ، وأن يقسم أمام اللورد حافظ الأختام : إن كل ما سيطبعه إن هو إلا حقيقة محضة ، أو إنه كذلك على قدر ما يظن . وعلى هذا لا يكون الناس مخدوعين ، كما هم دائماً مخدوعون . وإنى أصوت سلفاً لمثل هذا القانون ، وأقبل راضياً ألا تطبع مصنفاتى إلا بعد تهذيبها . »

كان « سويفت » من أشهر أعلام عصره ، وقد ظهر لنا في ميدان النقد بصورة رجل هائل ، قوى العضلات ، مفتول الساعدين ، عظيم الخطر في شئون بلده وأحواله ، وهو على ثقة بأن ستكون له شهرة خالدة ، ولكن الرخاء والسعادة ما كانا ليسيايه . وإذا كان من الحق أن « سويفت » – وقد غامر في الحياة – لم يألف من قبل إلا مرارة التوسل للإحسان حتى اضطر إلى أن يعنو لبعض العظماء ، فمن المحقق أنه كان مسلحاً ، وكان قادراً على أن يذلل العقبات التي تعترض سيره و رفعته – إذا ما توافرت فيه الشجاعة على الصبر – التي هي حق دليل على النفوس الكبيرة ، أعني النفوس التي لا تضمر حقداً ولا غيرة . ولا مشاحة أن من الخطأ البين أن يضحي الإنسان ضميره في سبيل المصلحة ، وأن يوجه ضرباته حيناً إلى حزبه ، وحيناً إلى حزب آخر ، جرياً وراء الفائدة التي ينشدها ، ويترقب الوصول إليها من أحدهما . لهذا كان ظهور « جلفر » حادثاً جليلا كما قلنا . وقد كتب الكاتب القصصي « جاى » لسويفت في ١٩ من نوفمبر سنة ١٧٢٦م ما يلي : « نشر في لندن « هنا » كتاب عن سياحات رجل اسمه « جلفر » كان حديث الناس في المدينة كلها . وقد بيع جميع ما طبع منه في أسبوع واحد . وليس ثمة ما يدعو إلى الترويح والتسلية ، أكثر مما حواه ذلك الكتاب من تنوع الأفكار والآراء ، فقد أجمع الناس على ذلك ، ولم يشذ منهم أحد . وقد تذوقوا لذة كل كلمة فيه ، ولم يعرف الناس اسم مؤلفه ، وناشر الكتاب نفسه لا يدرى من الذى قدم له هذا الكتاب الذى قرأته جميع الطبقات : من أعلاها إلى أدناها ، من خاصتها إلى عامتها ، من غرفة رئيس الوزارة إلى غرفة المرضع . »

على أن « سويفت » لم يكتم طويلا ذلك السر الذى كان يحرص على ألا يذيعه ، فقد أفضى به في سنة ١٧٢٧ م إلى القسيس « ديفوتين » .

وقد كتب المسيو « نابرو » في معجم أدب اللغة يقول :

« إن رحلات « جلفر » رواية رائعة ، تشتمل على إشارات ووقائع عصرية ، وتمثل لوثة الإنسانية العامة ، وهذه اللوثة وحدها هي التي تهمنا اليوم ، فقد زعم المؤلف أن جراحاً اسمه « جلفر » روى وقائع غريبة ومدهشة حدثت له بعد أن غرقت سفينته التي انتهت رحلتها إلى « ليليبوت » ، في بلد لا يزيد طول أحد من أهليه وساكنيه على ست أصابع . ثم ذهب بعد ذلك إلى « بربدنجاج » ، وهو بلد أهله من العمالقة . ثم انتهى به السير إلى جزيرة « لابوتا » التي يقطنها الفلاسفة والفلكيون ، ثم إلى « جلوبد » و « بدريد » حيث يسكن السحرة الذين يستعرضون – رغبة في الفكاهة – عظماء العصور السحيقة . ثم وصل إلى « لوجناك » حيث لقي أشقى خلق الناس وأتعسهم ، وهم أناس مخلدون . وأخيراً سار في سياحة رابعة ووصل إلى بلاد « الهويهنم » أي الخيول الرشيدة المتحضرة التي تعيش على مقربة من الأكثرين بشاعة ودنساً ، وحمقاً ووحشية ، وهم الرجال أو « الياهو » وهذه هي الكلمة الأخيرة . وقد سلك المؤلف في نقده طريقته المسلية التي تنطوى على الزراية بالإنسانية . وقد راج هذا الكتاب الأول في نوعه وفي عمق فكرته . »

و « جلفر » بطل « سويفت » قد ألم بكل شيء ، وقد قال عنه « بريفت فيرادول » : « إن السياسة المنحطة في الرحلة إلى « ليليبوت » في منازعات عش النمل ، تتلاشى حيال الحكمة الهادئة عند أهالي « بربدنجاج » ، وحيال الملك الفيلسوف الذى أخذ بيده ذلك المادح الفصيح – للتقاليد والأخلاق في

انجلترا – وعطف عليه وقال له دون تأثر وانفعال :
« إنه يرى أن السواد الأعظم من مواطنيه أحط من سار على وجه الأرض . »

ومن بين سياحات «جلفر» – التي حازت في فرنسا قسطاً كبيراً من الشهرة والذيوع – قصة «البرميل» التي دس في أثنائها – بحجة الدفاع عن الكنيسة – كثيراً من لاذع التعريض بكثير من ذوي الخطر . »

* * *

وقد أصيب « جوناثان سويفت » – في آخر أيام حياته – بذهول انتهى بفقدان قواه العقلية شيئاً فشيئاً ، وقد قال عنه الناقد « لاهيه » :

« لقد فقد ذاكرته ، وقيل : إنه قضى عاماً دون أن يفوه بكلمة واحدة ، وكان يستبشع صورة الإنسان ، ويسير في كل يوم عشر ساعات وهو ذاهل معتوه . »

وقد مات « سويفت » في ٢٩ من أكتوبر سنة ١٧٤٥ م وهو في الثامنة والسبعين من عمره ، ودفن في كتدرائية « بتريك » .

رقم الإيداع		١٩٩٠ / ٤٩٠٠
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3001 - 4	ISBN

١ / ٩٠ / ٧٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)